العشرة المبشرون بالجنة

عماد الشافعى

المركز العربي الحديث

١٠٢ شارع الامام على. ميدان الاسماعيلية. مصر الجديدة.

القاهرة ت: ٢٧٠٦٠٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير عباد الله ، وبعد . . .

هذه صفحاتٌ من سيرة العشرة الأبرار من أصحاب النبى ، الذين بشَّرهم بالجنة ، وأثنى عليهم خيراً ، أيام كانوا فرساناً حوله ، يقتدون به ويهتدون بهديه .

فقد دخل رسول الله ـ ﷺ ـ فنزل على عائشة ـ رضى الله عنها ـ يوماً ، وقال :

ـ يا عائشة !

قالت : بلى يا رسول الله !

قال : أبوك فى الجنة ورفيقه إبراهيم ، وعمر فى الجنة ورفيقه نوح ، وعثمان فى الجنة ورفيقه أنا ، وعلىّ فى الجنة ورفيقه يحيى بن زكريا ، وطلحة فى الجنة ورفيقه داود ، والزبير فى الجنة ورفيقه اسماعيل ، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ورفيقه سليمان ، ، وسعيد ابن زيد فى الجنة ورفيقه عيسى بن مريم ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح فى الجنة ورفيقه ادريس ـ عليه السلام ـ .

ثم قال ـ ﷺ ـ :

« يا عائشة أنا سيد المرسلين ، وأبوك أفضل الصديقين ، وأنت أم المؤمنين »

هؤلاء الرجال الكرام أحبهم الله، وأحبهم رسول الله، فكان لزاماً على الأمة أن تكتب سيرتهم بمداد من نور، وكان لزاماً علينا نحن المسلمون أن نقرأها بشغف وحب، حتى نقتفى أثرهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

[الزمر: ١٨].

وأسأل الله أن يلحقنا بهؤلاء الأبرار فى الجنة، وأن يجعل هذه الصفحات خالصة لوجهه الكريم.

عماد حسن الشافعى.

«أبو بكرٍ الصدِّيق»

ـ رضي الله عنه ـ

« من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى أبي بكر»

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

نَشَأَ أبو بكر الصِّديق في مكةَ عَزيزاً كَريماً، وكان رَاجحَ العَقْلِ مُتَّزِن النَّفسِ دائماً، فلَم يَقْبَل بخُرافات الجاهلية، ولم يَسْجد لصنمٍ قطٍّ، ولَم يشربَ الخَمر مُطْلقاً، سُئِلَ يوماً: هل شَربتَ الخَمرَ في الجاهليةِ ياأبابكر؟

فكان رَدُّه: أعوذُ بالله!

قيل له: ولِمَ؟!

فقال: كُنتُ أصونُ عِرْضي، وأحفَظُ مُرُوءتي، فإن مَنْ شَرِبَ الخَمر كان مُضيَّعاً في مُروءته، وعِرْضه.

وكان أبو بكر الصدِّيق عَفيفَ النَّفَس، عالي الهمَّة. وكانت أخْلاقُه سَمْحةً وسيرتُه كَريمةً. وكان تاجراً أَميناً وبائعاً نَزيهاً. يبيعُ الثِّيابَ ويكسبُ كَثيراً. وكان يُنْفقُ من ماله الوفير على الفُقراء والمساكين. هذا فضلاً عن أنه كان يُقْرى الضَّيف، ولأنه صادقٌ أمينٌ فكان يتولَّى أمْر الدِّيات في الجاهليةِ، وينوبُ فيها عن قُريشٍ، وبهذا

كسَبَ أبو بكر ثقةَ العربِ ، فكانوا يحترمونَ رأيهُ . كان أبوبكرٍ الصدِّيق صديقاً لمحمد .

ـ ﷺ ـ قبل الإسلام ، فقد خَرجا معاً فى تجارات لقُريش إلى الشَّام ، ولكَمَ تحدَّثا سَوياً فى شَتَّى الأحاديث والأخبار . وعندما نزل الوحىُ على النَّبى وأمرهُ اللهُ أن ينذرَ عَشيرتهُ الأقربينَ ، وراح النَّبى يدعو إلى الإسلام ، هُنالك فَزعتْ قريش ، وأسْرَعَ النَّاسُ إلى أبى بكر يُخبرونه بما أصَابَ صديقهُ محمداً من جنونٍ ، وأنه يَسُبُّ آلهتهم ويَسْخر منها ويَزْعُم أنه نبىٌّ .

فانطلقَ أبوبكر إلى صاحبه محمداً وتحدَّثَ معه ، وعَرضَ عليه النبى الإسلامَ فآمنَ فى الحال ، وكانَ بذلكَ أوَّل المؤمنين بدعوة الإسلامِ من الرِّجال .

* * *

ظَلَّ إيمانُ أبى بكر بدعوة محمد سرَّاً ، حتى استأذن أبو بكر النبى فى الخُروج إلى القوم عندَ الكعبَة والجَهْرَ بالدَّعوَة وليحدثْ مَا يحدثْ .

ولم يوافق النبى على ذلك أولاً ، ولكن أبابكر ظلَّ يُلحُّ فى طلبه حتى وافقَ رسولُ الله ، فخرجَ أبوبكر مع بعض أصحابه من المؤمنينَ الأولينَ فوجدوا شيوخَ قُريش جالسينَ يتحدثون بجوار الكعبَة ، فوقفَ أبوبكر فيهم خطيباً وراحَ يدعوهُم إلى الإيمان بالله وعبادته وَحدْه لا شريكَ لهُ وكانَ النبىّ جالساً يستمعُ إلى أبى بكرٍ فى إعجابٍ وإشفاقٍ .

كانَ ذلكَ تحدِّياً واضحاً لشيوخِ قُريشٍ وأشرافها، ولم يكَد أبوبكر يُنْهى كلامَهُ حتى قامَ إليه القَوْمُ ونزلوا عليه وعلى المُسلمين الذين معهُ ضَرْباً ولَكْماً، وخَلَعَ عُتْبةُ بن ربيعة نَعْله ونَزل به على وَجه أبى بكرٍ ضَرْباً وصَفْعاً حتى سالتْ منه الدِّماءُ وغابَ عن الوَعى .

وأقْبلتْ بنو تميمٍ ودفعوا المُشركينَ عنه، وحَملوهُ إلى دارِه وهُم يَظنون أنه ماتَ !

وظلَّ أبوبكر فاقدَ الوَعى مُدةً، وكان مَنْ حَولَهُ فى ذُعْرٍ وخَوْف، وعندماأفاقَ من الغَيْبوبةِ قليلاً كان أولُ كلامٍ نطقَ به :

ـ ما فعلَ رسولُ الله؟

فقيلَ له : إن رسولَ الله سَالمٌ فى دار ابن الأرْقم .

وعندما قدَّمتْ له أمُّه قَدَحاً فيه لَبن قالَ :

-والله لا أذوقُ طَعاماً ولا شَراباً حتى أتى رسولَ الله .

وخرجَ أبوبكر فى جُنْح اللَّيل يتكئُ بذراعيه على أمه ، وفاطمة بنت الخَطَّاب ـ وكانتْ قد أسْلمتْ ـ حتى وَصَلُوا إلى دارِ الأَرْقمِ ، فَقامَ إليه النبىُّ مُسْتبشراً ومُرحِّباً، وسألهُ :

ـ كيف حالكَ يا أبا بكر؟

فردَّ أبوبكر وقدْ ذهبَ عنه القَلقُ :

-بأبى أنتَ وأمى يا رسولَ الله، ليس بى إلا مانالَ الفاسقُ من وَجْهى ، فدعاالنبى له بالخير، وقال أبو بكر للنبى :

ـ يا رسولَ الله، هذه أمي، بَرَّةٌ بولدها، وأنتَ مُباركٌ فادْعُها إلى الله وادعُ اللهَ لها عَسى أن يُنقذها بكَ من النَّار.

فدعاها النبيُّ إلى الإسلام ودعا لها بالخير والهداية، فقالتْ:

ـ أشهدُ أن لاإلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ الله.

وكان أبوبكرٍ أشَدَّ فرحاً بإسلام أمه، وسَلامة رسول الله من الأذى.

* * *

كان لإسلام أبي بكر أثرٌ عظيمٌ على الدَّعوة الجديدة، فقد صَحبَ النَّبيَ ولازمهُ في حياته، وكان يَدْعو أصحابهُ وكرامَ قومه إلى الإسلام، فأسلَم على يديه عددٌ كبيرٌ من كرام الصَّحابة، منهم عثمانُ بن عفان، وسعدُ بن أبي وقاص، وطَلْحةُ بن عُبيد الله، والزُّبيرُ بن العَوَّام، وعَبد الرحمن بن عَوْف، وكان لحُسن أخلاق أبي بكر، ورجَاحة عقله ومكانته في قَوْمه أكْبَر الأثر في إسلام هؤلاء الصَّفوة من السَّابقينَ الأولينَ منَ المُسلمينَ، الذين انتشرَ الإسلامُ بهم.

وعندما اشْتَدَّ إيذاءُ المُشركينَ لمواليهم وعَبيدهم من المُسلمين، كان أبوبكر يَشْتري من ماله هؤلاء المُعذبين المُؤمنينَ، ويُحررهم من العُبودية ويُنْقذهُم من العَذاب ويُخلصهم من أيْدي سَادتهم القُساة الظَّالمينَ، ومن هؤلاء المَوالي بلالُ ابن رَباحٍ (مُؤذنُ الرَّسول)، وعَامرُ بن فُهَيْرة.

واشْتَّد إيذاءُ الْمُشركين للمُسلمين عامةً ، وأذن النَّبيُ لأصحابه بالهجرة إلى الحَبشة ، وأراد أبو بكر الهجرةَ إلى الحبشة مع الْمُهاجرين ، فاستأذنَ رسولَ الله ، فأَذن له ، وركب راحلتُه وانطلق بها ، وفى الطَّريق لقيهُ رجلٌ يُدعى ابنُ الدَّغنة فعرضَ على أبى بكر أن يعودَ إلى مكةَ فى جواره وحمايته ، فعاد أبوبكر الصدِّيق إلى مكةَ ولكنه مالبثَ أن رَدَّ على الرَّجل جوارَهُ وآثرجوارَ الله ، وكان يتحمَّلُ مع الْمسلمينَ مُضايقات وأذى الْمُشركينَ .

كانتْ دَعوةُ الإسلامِ تَنْتشرُ فى مكةَ على الرغمِ من عناد الْمُشركينَ ، وبدأتْ الدَّعوةُ تَنتشرُ فى الَمدينة ، وهَاجَر إليها بعضُ الصَّحابة ، وراحَ إبوبكرٍ يستأذنُ النَّبى فى الهجرة إلى المدينَة . فقال له النبى ـ ﷺ ـ :

ـ لا تعجل لعل الله يجعلَ لكَ صَاحباً .

فسكتَ أبوبكر وهو يطمعُ فى صُحْبَة رسول الله ، وأعدَّ راحلتينَ لهذاالأمر ، حتى جاءَ الأمرُ من الله للنبَّى بالهْجرةَ إلى المدينة فى الليلة التى أعدَّ المشركونَ أنفسهم فيها لقتلَ النبى والقضاءَ على دعوته .

وفى ظُهْر هذا اليوم خرجَ النَّبىُ ـ ﷺ ـ من داره مُتجهاً إلى دار صديقه أبى بكر ، فاستقبلُه أبوبكرٍ بتْرحابٍ شديدٍ ، وأكرمَ وفادتُه ، وبعد أن إطمأن النبىٌ قال لأبى يكر :

ـ اَخْرجَ عَنِّى من عنْدكَ .

فأدركَ أبوبكر أن هُناكَ أمراً جليلاً فقالَ للنبى :

ـ يا رسولَ اللّه ، إنما هُما ابنتاى ، وماذَاكَ الأمرَ فداكَ أبى وأمى ؟

فقال النبىُ : إنَ اللهَ قد أذنَ لى فى الهِجرة إلى المَدينة .

ـ الصُّحبةُ يا رسولَ الله !

ـ الصُّحبةُ !

وبكى أبوبكر فَرَحاً ، وقالَ :

ـ يانَبَّى الله ، هاتان راحلتان كُنْتُ أعْدَدتُهما لهذا اليوم .

وعندما جَاء المساءُ ، خَرجَ النبى ـ ﷺ ـ وصَاحبهُ خُفيةً من فتحة فى جدار البَيتَ ، وانطلقا براحلتيهما فى الصَّحراء حتى وَصَلا إلى غار ثَوْر .

وَدَخَل إبوبكر قبلَ النَّبىُ ليُنظفهُ ويُزيلُ ما به من سُوء . فوجدَ أبوبكر فى الغار شُقوقاً وثُقُوباً ، فَشَقَ إزارهُ وسَدَّها به ، ما عَدا ثُقبانَ سَدَّهما بقدمه وهو جَالسُ خَشْيةَ أن يكونَ بهما ما يُؤْذى النبَّى .

ونامَ النَّبىُ ـ ﷺ ـ فى حجْر صديقه أبى بكر ، وتَخْرجُ حيةٌ من أحد الثُّقبين وتلدغُ قَدَم أبى بكر ، فيبكى من الألم ، وتَسْقطُ دموعُهُ على وَجه النَّبى فيستقيظُ ويسألُ صاحبَهُ :

مالكَ يا أبابكر ؟

ـ لُدغتُ . فداكَ أبى وأُمى يارسولَ الله .

ويُداوى النَّبىُ مكانَ اللَّدغة فيبرأ أبوبكر ، وتطيبُ نفسهُ ، ويدعو النبىَ لأبى بكر بالمَنزلة العَالية يومَ القيامة .

* * *

ويقيمُ أبوبكر مع النبى ـ ﷺ ـ فى الغارِ ثلاثةَ أيامٍ، كانت من أروع لحظات الإيمان والتَضحيْة والفداء.

وتأتى قرَيش مُسْرِعةً للبحث عن النَّبى وصاحِبه، ويقفُ المُشركونَ أمامَ باب الغار حَيثُ انتهَتْ بهم آثارُ الأقدام.

ويسمعُ أبوبكر حوارَ الرِّجال الوَاقفينَ أمامَ باب الغَار، فيشعرُ بالرُّعب والخَوف على حياة النَّبى، ويَهمْسُ للنبى فى قَلَق:

ـ يا رسولَ الله. لو نَظرَ أحدُهم تحتَ قدميه لرآنا.

فيرد النبى ـ ﷺ ـ مُهدئاً ومُطمَئناً:

ـ يا أبابكر، ما ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثَالثهما. . لاتَحزْن إن اللهَ معنا.

ويُنزل اللهُ تعالى السَّكينَةَ على قَلْب أبى بكر الصَّديق، فتهدأ نفسُه، ويطمئنُ قلبُه ويُعمى الله أبصار المُشركين عن النبى وأبى بكر، ويَرى المُشركون الغار قد سُدَّتْ فتحتهُ بخيوط العَنْكبوت، ورَقدتْ على جَانبيه حَمَامتان آمنتان. فرجعوا خَائبينَ مَدْحُورين.

وينزلُ الوحيُ على النبى ـ ﷺ ـ مُعْلياً من شأن أبى بكر الصدِّيق، يقول تعالى ﴿ ثانِى اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وفى المدينة تُقامُ دولةُ الإسلامِ لأول مرة فى التاريخ، ويواجهُ النبىُ أعداءَ الإسلامِ المشركينَ فى غزواتٍ ومعاركٍ كثيرة، يخوضها

المسلمون مع النبى ويكون أبوبكر الصديق فى مُقدمة المسلمين فى خوض هذه الغزوات ، غزوة بدرٍ وأُحدٍ ، والأحزابِ ، ويكون رفيق النبىَ فى فتح مكة .

وتمضى الأعوامُ والإسلامُ ينتشرُ فى مكةَ والمدينة وحولهما .

وفى العام التاسع من الهجرة يُرسلُ النبى أبابكرٍ ليحُجَ بالناسِ ، ثم يَحُجَ النبىّ فى العام التالى حُجَةَ الوداعِ .

وتمضى الأيامُ ويشتد المرض ذات يوم بالنبى ـ ﷺ ـ ، ويحين وقت الصلاة ، ويأتى بلالَ إلى النبى فيقولُ النبىُ له :

ـ مُرُوا أبابكر فليصلِّى بالناسِ .

ويخرجُ بلالُ مؤذن النبى إلى المسجدِ فلا يجدُ أبابكرٍ فقال لعمر ابن الخطاب :

ـ قُمْ فَصَلِّ بالناسِ .

وعندما كَبَّر عُمر فى الصلاَة ، وسَمعهُ النَّبىُ ـ كان بيتُ النبى بجوارِ المسجد ـ غَضبَ وقال لمن حَولهُ :

ـ فَأين أَبوبكرٍ . . . يأبى اللهُ ذلكَ والمُسلمونَ ، يأبى الله ذلك والمُسلمون !

وعندما وَصل أبوبكرٍ الصِّديق صلَّى بالناس .

وتَحسنتْ من بعدها صحَّةُ النبى ـ ﷺ ـ ، حتى جاءَ يومٌ ، كان أبوبكرٍ جالساً فى داره بالسُّنحِ (وهى منازل تبعد ميل عن المسجد

النبوى). وجاءه نبأ وفاةَ النبى ، فأسرع إلى بيت عائشة ابنته ، زوجُ رسول الله فوجد النبى مُسَجَّى فى ناحية من الحُجرة وعليه غطاءٌ يحجبُ كُلَّ جسده ، فكشفَ الغطاءَ عن وجهه وقبَّلهُ قُبلةَ الوَداع ، وانحدرتْ من عَينه دَمعةٌ وهو يقولُ :

ـ أبى أنتَ وأُمى ، أما المَوْتةُ التى كَتَبَ الله عليكَ فقد ذُقْتها ثم لن يُصيبكَ بَعدها موتةً أبداً .

ثم وضَعَ الغطاءَ على وجهه وخرجَ إلى الطريق ، فوجدَ المُسلمينَ خارجَ المسجد مُجْتمعين وعُمر بن الخطاب يَهْتفُ فيهم :

ـ أيها النَّاسُ ، إن رسولَ الله لم يَمُتْ ولكنهُ ذَهَبَ إلى ربه كما ذَهَبَ مُوسى بن عمران .

فقال أبوبكر : على رِسْلكَ يا عُمر .

ثم قام فى النَّاس خطيباً لكى يُهدئ اضطرابَ النَّاس ، فقال بعدأن حمد الله وأثنى عليه :

ـ أيها النَّاسُ . من كانَ يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ ، ومن كان يعبدُ اللهَ فإن الله حَىٌّ لا يموتُ ، ثم تلاَ قولَ الله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

فانتبهَ النَّاسُ إلى حقيقة النَّبأ الحزين، وانصرفوا من أمام المسجد وعُيونُهم دامعةٌ وقلوبُهم مُنْفطرةٌ.

* * *

وبايعَ المُسلمونَ أبابكر الصديق بالخلافة. وكان أولُ عملٍ قامَ به أبوبكر بعد مبايعته بالخلافة هو تَسْييرُ جيش أسامةُ بن زيد، الذى كان النبىُّ ـ ﷺ ـ قد جَهَّزه قبل مَوْته، وذلكَ لغزو أطراف بلاد الرُّوم.

وخرجَ أبوبكر يُشيِّعُ جيشَ المسلمينَ بنفسه، وأسامةُ القائدُ راكبٌ دابتهُ. ثم بدا لأبى بكر الصديق أن يُوقف تيار الرِّدة الذى انفجر بعد موت النبى ـ ﷺ ـ، وذلك بمحاربة المرتدينَ ومانعى الزَّكاة.

وجمع أبوبكر قُوَّاد المسلمين، واختارَ منهم أحدَ عَشرَ قائداً، أرسل كُلاً منهم بجيشٍ إلى بلاد المرتدين للقضاء على الخارجينَ عن تعاليم الإسلام. وانتصرَ المسلمون فى تلك الحُروبَ، ورَسَّخَ هذا النَّصرُ أركانَ الإسلام فى أرض الجزيرة العربية.

ثم رأى أبو بكر أن يُحقق بشارة النبى ـ ﷺ ـ بفتح الممالك، مملكة الرُّوم ومملكة الفُرس، فجمعَ أربعينَ ألف مقاتل من المُسلمينَ الذين لم يدخل قُلوبهم الرِّدَةُ وأرسلهم إلى الشَّام بأموالهم وأهليهم، وأسنَد القيادة العامة لهذه الجيوش إلى أبى عُبيدة بن الجراح. وتمَّ النصرُ للمسلمين فى مواقع كثيرة، كان أهمها واقعةُ اليرموك، وانتشرَ الإسلامُ بعدها فى أرجاء الأرض.

ظَلَّ أبوبكر خليفةً للمُسلمينَ مدة عامين وثلاثة أشْهر وعَشر ليال، رَسَّخ خلالها دولة الإسلام وأقام خلالها حُكُومةً مُسلمةً عَصريةً، وبرغم ذلك كان زاهداً ورعاً يعيشُ على الكَفاف، وبرغم أنه كان تاجراً غنياً ثرياً في بداية عهده بالإسلام، فقد كانَ رأسُ ماله أربعينَ ألفَ درهماً عندما أسلمَ أنفقها في سبيل الله، وكان يعيشُ وأسرتُه على راتبه من بيت مال المسلمينَ.

وتمضي الأيامُ من إيمان إلى إيمان، ومن رفْعة للإسلام إلى رفعة، حتى يحين الأجلُ، فيمرضَ أبوبكر الصدِّيقَ وتشتدُ عليه الحُمى، ويُفارقُ الحياةَ في يوم الإثنين ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ من الهجرة. ويصلي عمر وصحابةُ رسول الله في مسجد النبي ويُدفنُ بجوار صاحبه وصديقه النبي ـ ﷺ ـ. رضي الله عن أبي بكر الصدِّيق، أولَ من أسلم، وأول من جمعَ القرآنَ، وأول من سَمَّاهُ مُصْحفاً، وأول من سُمي خليفةً، وأول من ولي الخلافةَ وأبوه حيٌّ، وأول خليفة فرضت له رعيته العطاءَ (راتبه)، وأول من اتخذ بيت المال.

« رضي الله تعالى عنه »

« عمر بن الخطاب »

ـ رضي الله عنه ـ

« إنى لأنظر إلى شياطين الإنس قد فروا من عمر »

النبى ـ ﷺ ـ

نشأ عمرُ بن الخطاب فى مكةَ يرعى الغَنَم لأبيه فى الأودية والجبال، وكان أبوهُ قاسياً عليه فى معاملته، فَشبَّ عمرُ على الشِّدة والصَّرامة، وامتازَ على أقرانه بالفُتُوَّة والقوة ومُضَاءَ العزيمة. وتعلَّمَ عمر القراءةَ، فكان يقرأُ أشعارَ العرب ويحفظُها، وكان يَطْربُ للجيِّد من الشِّعر ولا يَحفلُ بالردئ الغَثّ. وعندما كبر عُمر عَملَ بالتِّجارة، فكان يخرج أحياناً إلى الشَّام يتاجرُ بماله وإن كان قليلاً، وذاعَ صيتُه فى مكةَ، واشتهر فيها بالشَّهامة والنَّجدة وسَداد الرأى، فكان عزيزاً فى قَومه يعملُ له القومُ دائماً ألفَ حساب، ويخشى الناسُ بأسهُ وغضبه.

كان الإسلامُ قد ظهرَ فى مكّةَ، وكان النبىُ يجتمعُ بالمسلمين الأوائلَ فى دار الأرقم بن أبى الأرقم خُفْيةً من أعين قريش وخَشيةً من بَطْشِها. وكان المُسلمونَ وقتئذٍ فى حاجةٍ إلى عَوْنٍ وسَنَدٍ، وجُرأة فى إعلان إسلامهم على المَلأ.

ورأى النبىُ ـ ﷺ ـ أن خيراً يكون للمُسلمين بإسلامِ أحدِ رَجُلين من رجال مكةَ، فرفعَ يديه إلى الله قائلاً:

« اللهم أعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك . . عُمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام» واستجابَ اللهُ لدعاء نبيه الكريم .

ذاتَ يومٍ كان عمر بن الخطاب ضَائناً قَلقًا ، فقد أعياهُ ظهورُ الإسلام فى مكةَ وأن محمداً أصبحَ بدعوته الجديدة يُفرق بين المَرْء وزَوْجه وبين الأخ وأخيه ، فرأى أن يَحْسمَ الأمرَ بنفسه ويتصدَّى لمحمد بن عبد الله ويقتلهُ .

فخرجَ عُمر من داره فى الهَاجرة مُتوشِّحاً سيفهُ يريدُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ، وفى إحدى طرُق مكة لقيهُ رجلٌ من قريشٍ وسألهُ :

ـ أين تَذْهبُ يا ابن الخطاب؟

ـ أُريدُ مُحمداً ، هذا الصَّابئُ الذى فَرَّقَ أمرَ قريشٍ وسَفَّهَ أحْلامَها ، وسَبَّ آلهتها ، وعابَ دينها ، فأقتله .

ـ والله لقد غرتك نفسك يا ابن الخطاب ! أتُرى بنى عبدُ مناف تاركيكَ تمشى على الأرضِ وقد قتلتَ مُحمداً؟! . . أفلا ترجعُ إلى أهلِ بيتكَ فتُقيمُ أمرهم ؟!

ـ وأىُّ أهلِ بيتى؟

ـ أختك قد صَبأتْ! (خرجت من دينها) .

فرجعَ عمر بن الخطاب غَاضباً قَاصداً دارَ أخته وزوجها ، وفى ذلكَ الوقت كان عندهما خَبابُ بن الأرتِّ ومعه صحيفةٌ يقرأون فيها القرآن .

قرَعَ عمر البَاب فقيل : من هذا؟ قال : ابنُ الخطابِ .

فلما سمعوا صَوتَ عمر فَزِعَ القومُ وأخفوا خَباب، وتركوا الصَّحيفةَ من أيديهم، وفتحَ سعيدُ بن زيد البابَ، وقال عمر: ما هذه الهَيمنة التى سمعتُ؟ قالت فاطمةُ: ما سمعتَ شيئاً. فقال: بلى والله لقد أُخبرتُ أنكما تبعتما محمداً على دينه.. وبطشَ بسعيد بن زيد:

فقامت أخته فاطمة لتمنعه عن زوجها، فدفعها

وضربها على وجهها فَشَجَّها، وسالَ الدمُ منها. فلما رأتْ أختُه الدَّمَ بكتْ وقالتْ له فى تحدٍّ واعناد:

ـ يابن الخطاب ما كُنتَ فاعلاً فافعلْ، لقد أسلمتُ أنا وزوجى. فدخل عمر الدار غاضباً، وجلسَ على السَّريروهو يشعرُ بندمٍ على مافعلهُ بأخته، ونظر فى ناحية البيت فإذا صحيفةٌ مُلْقاةٌ، فقال لأخته:

ـ ما هذا الكتابُ؟ أعطنيه.

ـ لا أعطيكَ شَيْئاً، أنتَ لستَ من أهله، هذا لايَمسُّهُ إلا المُطهرون.

ولم يزل عمرُ بها حتى أعطتْه أختُه الصحيفَة ليقرأها. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، فذُعِر وألقى الصحيفةَ من يده، ثم عادَ وتناولها، وأخذَ يقرأُ:

﴿طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى (٤) الرحمن على العرش استوى (٥) له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ [طه: ١-٦].

وكان عمر يفكر فى الكلمات ويتدبرُ، فقال فى سكينة: ما أحسنَ هذا

الكلامَ أكرمهُ! فلما سمع خَبَّابُ عبارتهُ خرج من مخبئه وقال له :

ـ يا عُمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خَصَّكَ بدعوة نبيك ، فإنى سَمعتهُ أمس يقولُ : « اللهم أيِّد الإسلامَ بأبى الحكم ابن هشامٍ ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عُمر !

عند ذلك قال عمر بن الخطاب : دُلَّنى يا خبَّاب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال خباب : هو فى بيت عند الصَّفا فى نفر من أصحابه .

فخرجَ عُمر متوشِّحاً سيفهُ متوجهاً إلى دار الأرقمِ بن أبى الأرقم ، وقرع الباب ، فقيل : من ؟

قال : ابن الخطاب .

فخاف من بالدار ولم يجرؤ أحدٌ على فتح البابِ ، فقال لهم رسول الله :

ـ افْتَحوا له ، فإن يُرد اللهُ به خيراً يَهْده .

ففتحوا البابَ ، وأخذَ رجلان بعَضُدَه وأدخلوه الدار حتى إذا دنا من رسول الله ـ ﷺ ـ فقال النبىُ : أرسلوهُ!

فتركوهُ ، فجلسَ بين يدى النَّبى ، فأخذَ النبى بمجمع قميصه وجَذبهُ إليه وهويقولُ : أسلم ياابن الخطاب ، اللَّهم اهده .

فقال عُمر : أشهد أن لاإله إلا اللهُ ، وأنكَ رسولُ الله .

فكبَّر المسلونَ تكبيرةً سُمعتْ بطرق مكةَ ، وأقبلوا على عُمرَ يُهنئونه بالإسلامِ . وكان عُمره آنئذٍ ستةً وعشرين سنةً .

* * *

كان إسلام عمر فَتْحاً للمسلمين الأوائل، فقد كانوا يعبدونَ الله خُفْيةً، فأصبحوا يُجاهرون بصلاتهم، وعندما أرادَ الهجرةَ إلى المدينة، لم يخرجْ خُفيةً كغيره من المُسلمين، بل تقلدَّ سيفُه وخرجَ إلى الكعبة وحولها أشرافُ مكةَ، فطافَ بالكعبة ثم صلَّى ركعتين، ثم دنا من القَوْمِ صائحاً:

ـ إنى مهاجرٌ إلى المدينة، فمن أرادَ منكم أن تثكلَه أمهُ (أى تفقده)، ويُيتَمُ ولدُه، وتَترملُ امرأته فليلقنى خلفَ هذا الوادى.

وتركهم وانصرفَ، ولم يجرؤ أحدٌ على مواجهته أو اللُّحوقِ به، فركبَ راحلتهُ وانطلقَ إلى يثربَ آمناً.

وعاش عُمر بن الخطاب فى المدينة مع رسول الله والمسلمينَ، وكان قوياً فى الحقِ غيوراً على الدين مُحباً لرسول الله، فأحبَّهُ رسولُ الله وقال فى حقِّه:

ـ «إن اللهَ جعلَ الحقَ على لسانِ عُمر وقلبه»

ـ «يا ابن الخطاب، والذى نفسى بيده، ما لقيكَ الشَّيطانُ سالكاً فجَّاً إلا سلكَ فجاً غير فجك» (أى طريقاً).

ولى عُمر بن الخطاب أمرَ المُسلمين بعد موت خليفة رسول الله «أبو بكر الصديق» فكانَ نموذجاً للحاكمِ العادلِ اليَقظ، وكان بين رعيته حكيماً رحيماً مُتواضعاً.

وفتحَ اللهُ فى عهده بلادَ الفُرس والرُّوم على المسلمينَ، وذاتَ يومٍ وفد رسول كِسْرى إلى المدينة فسأل: أين دارُ الحكومة؟

فقالوا له: ليس للحكومة داراً، فسأل: من أين تُصدرُ الأوامر؟

قالوا له: من المسجد، فإذا جدَّ جَدٌّ، أو حدثَ شيءٌ يُنادى مؤذنٌ: الصلاةُ جامعة! فيجتمعُ الناس فى المسجد، ففى المسجد تُقامُ الصَّلاةُ، وتُقَرُّ فيه شئُون الحربِ، ومنه تصدر الأوامرُ لولاة الأمصار، فسأل الرَّجل: فأين قصرُ الأمير؟

فأشاروا إليه، فوجد الرجلُ عمرَ نائماً أمام داره المُتواضعةِ على كَوْمةٍ من الرِّمال، فوقفَ حائراً وانطلقَ لسانُه قائلاً فى ذُهول:

«حكمتَ، فعدلتَ، فأمنتَ، فنمت ياعُمر!»

وعادَ الرَّجُل إلى كسْرى يُخبره أن الملكَ الحقيقى هو عُمرُ لأنه ينامُ وقلوبُ المُسلمينَ تُجلِّهُ وتحرسهُ.

وعندما أراد «جبلَّةُ بنُ الأيْهم» الدُّخولَ فى الإسلام وكان أحدُ ملوك غَسَّان، أقبلَ إلى المدينة فى خُمسمائة فارس عليهم ثيابٌ غاليةٌ، وهو يلبسُ تاجاً مُرصَّعاً باللؤلؤ، وفرحَ بإسلامه عُمر بن الخطاب وفرحَ المُسلمون أيضاً وخرجوا لمُقابلته. وحضر هذا الملكُ مَوْسم الحجِّ مع عمر ـ رضي الله عنه ـ وعامةُ المُسلمين.

وبينما هذا الملكُ يطوفُ بالكعبة إذ وطئَ على إزاره رجلٌ أعرابىٌّ فحلَّه، فلطمهُ جبلَّةُ على وَجهه فهشَّمَ أنفهُ، فذهبَ الأعرابىُ إلى أمير المؤمنين عمرَ ليشكو له. فطلبهُ عُمر وسأله: ما دعاكَ ياجبلةُ إلى أن لطمتَ أخاكَ هذا فهشَّمتَ أنفه؟ فرد الملكُ قائلاً: إنه وَطئَ إزارى فحلَّه.

فقال عُمر : أما أنتَ فقد أقررتَ، إما أن تُرضيهُ ، وإما أن يضربكَ كما ضربتهُ .

فتعجَّبَ جبلةُ وقال : كيفَ يضربنى وأنا ملكٌ كبيرٌ، وهو من السُّوقة؟!

فقال له عُمر : يا جبلَة، لقد جمعكَ وإياهُ الإسلامُ، والإسلامُ سوَّى بينكما وكُلُّ المُسلمينَ سواءٌ، لا فرقَ بين المَلك والرَّعية، ولافضل لأحد على أحد إلا بالتَّقوى .

فقالَ جبلَةُ : واللَّه لقد رجوتُ أن أكونَ فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية .

قال عمر : هو كذلكَ .

قال جبلة : أخرنى إلى غد يا أميرَ المُؤمنينَ .

ردَّ عمر قائلاً : لكَ ذلكَ!

فلما أقبلَ الليلُ خرج جبلة بن الأيهم وأصحابهُ . وغَادَرَ مكةَ، وذَهبَ إلى القُسطنطينةَ، ودخل على هرَقل ملك الرُّوم فتنصَّر وأقامَ عنده، ولكنه ندمَ على ذلك فيما بعد عندما فتحَ المُسلمونَ بلادَ الرُّوم .

كان عُمر يبغى الانصافَ والعَدل بين المُسلمين، ولم يكن يَقصدُ التَّنفير من الإسلام .

وعندما أتى المُسلمونَ بالهُرمزان أسيراً إلى عُمر بن الخطاب، قالوا له :

ـ يا أميرَ المؤمنينَ هذا زعيمُ العجَم وصاحبُ رئيسم،

فقال له عمر : أعرضُ عليكَ الإسلامَ نُصْحاً لكَ .

فقال الهُرمذان : يا أميرَ المؤمنين ، إنما أعتقدُ ما أنا عليه ، ولا أرغبُ في الإسلام . فدعا عمر بالسَّيف . فلما هَمَّ بقتله قال : يا أميرَ المؤمنينَ . شربةٌ من ماء أفضلُ من قتلى على ظَمأ .

فأمر له عمر بقدح فيه ماءٌ . وعندما تناولَ القدحَ قالَ لأمير المؤمنينَ :

ـ أأنا آمنٌ حتى أشْربها؟

قالَ عُمر : نَعم . فَرَمى بهاَ وقالَ : الوفاءُ يا أميرَ المؤمنينَ نورٌ أبلجٌ! فقَالَ عمر : صدقتَ! . . لكَ التَّوقفُ عنكَ والنَّظرُ في أمركَ ، ارفَعوا عنهُ السَّيفَ .

فلمَا رُفِعَ عنهُ السَّيفُ قالَ : الآنَ يا أميرُ المؤمنينَ أشهدُ أن لاإلهَ إلاَ اللهُ ، وأنَ مُحمَداً عبدُهُ ورَسُولهُ ، ومَا جَاءَ به حَقٌّ من عنده .

فقَال عُمر : أسْلمتَ خيرَ إسلام فما أخَّرَكَ؟

فقال الرجلُ : كرهتُ أن تظُن أنى أسلمتُ جَزَعاً من السَّيف .

فقالَ عُمرَ وقد أعجبهُ موقفُ الرَّجل :

ـ إنَ لأهل فارس عُقولاً ، بها استَحقُّوا ، ما كَانُوا فيه من المُلك .

وأمر عُمَر أن يُكْرِمَ الرَّجلُ ويُبَرُّ . وكان عُمر يُشَاورهُ عند توجيه الجيوشِ لأهلِ فارس .

* * *

كانَ عُمر يخرجُ ليلاً إلى شوارعِ المدينة ليتفقدَ أحوالَ رَعيتُهُ ، خَرَجَ

ذاتَ ليلة ومعَهُ مولاهُ « أسلَم» . فـلاحَ لهُما خيمـةٌ مـن شَعْـر فقصداهَـا . فإذا أعرابيٌّ يَجلس أمَامَها حَائراً مَهْموماً ، فسَألهُ عُمرَ بَعدَ أن ألْقى عليه السَّلامَ : مَا الَّذى أشغَلَ بالكَ أَيُّها الأعرابىُّ؟

فقال : عندى امرأةٌ تلدُ وليس عندى طَعاماً ولا لَحْماً .

فرجعَ عُمرَ إلى بيته وسألَ زوجتَهُ : هل عندنَا طعَاماً أو لَحماً .

قالت : عندى طعامٌ لعَشائكَ .

فـردَ قـائـلاً : كـيـفَ يأكلُ عُـمـرَ وامـرأةٌ مِـن المُسلمـينَ تلـدُ وليسَ عنـدهَا شَئٌ .

ثم قال لها : هل لكَ فى أجر ساقهُ اللهُ إليك؟

قَـالت : نَعم . فـأخبـرَها الخَبَـرُ ، وتَوجَّـه إلى بيت المال وحَملَ الدقـيقَ والإدامَ ، وحملَ زوجتُه على ناقته ، وذهبَ إلى الأعرابىُ وقال له :

ـ يا أعرابىُّ سنكفيكَ هَمَّكَ ، لقَـد أحـضـرتُ لكَ الطَّعَـامَ ، واسـمَح لزوجَتى بخدمة زوجتكَ .

ففرِحَ الأعرابىُّ وقَالَ : نعْماكَ من رَجُلٍ كَريمٍ! ثم سَأل عُمرَ :

ـ مَن أنتَ؟ ، قال عُمرَ : أنا عَبْدٌ .

قالَ الرجُلَ : عَبْدُ مَنْ؟ قال عُمَرَ : عبدٌ لجميعِ المُسلمينَ .

فـأنَس به الأعـرابىُّ ، وجلَسَـا أمـامَ الخَـيـمـة يتـجـاذبانَ أطرافَ الحـديث . وأراد عمـرَ أن يَعرفَ رأىَ الرَّعـيةَ فيـه ، فَسَألَ الأعرابىُ : ما رأيكُم فى عُمَرَ؟

ردَّ الأعرابيُ قائلاً : عُمَر لابأسَ به ، غيرَ أنهُ شديدُ قطّ القَلب . وبينما عُمر يُصْغى لحديث الأعرابىِّ إذا بزوجتهُ تخرجُ وتَقول :

ـ هَنئ صديقَكَ يا أميرَ المُؤمنينَ ، فَقد رَزَقهُ اللهُ بغلام .

فاضطربَ الرَّجلُ عندما علِمَ أنـهُ عُمَر بن الخطاب وتَغيَّر لونهُ ، فقال له عُمر :

ـ يا أعرابىُّ . أنتَ صديقى لأنكَ أهديتَ إلىَّ عُيوبى .

* * *

وكَانَ عُمرُ رحيماً بأطفال المُسلمينَ ، خرجَ ذاتَ ليلة ومعه مولاهُ «أسْلمَ» ، فرأى قُربَ المدينةَ نَاراً تُوقَدُ ، فقالَ : يا أسلَم إنى أرى هُناكَ رَكْباً قَد ضَربهمُ اللّيلُ والبَردُ ، انطلقْ بنا .

فإذا بإمرأة معها أطفالٌ ، وقدرٌ علَى النارِ ، والأولادُ يَصيحونَ من شدَّة الجُوع .

فقالَ عُمر : السَّلامُ عَليكُم يا أصحابَ الضَوءِ . فردتِ المرأةُ السَّلامَ .

فقَالَ لَها : أأدنُو ؟

قَالت : أدْنُ بخير أو دَعْ .

فدَنَا منها عُمَر وَسَألَها : مَا بَالكُم ؟ قالتْ ضَرَبنا الليلُ والبَردُ .

فَسَألها : وَمابالُ هؤلاءِ الصِّبية يَصْرخونَ ؟ قَالت : الجُوعُ .

فقَالَ : وأىُ شئ فى هَذه القدرُ ؟ قالت : ماأُسكتَهم به حتى يناموا . واللهُ بَيننَا وبينَ عمرِ .

قال عُمَرَ: إى.. ويرحمُك اللهُ، وَما يُدرْى عُمَرَ بكُم؟

قَالت: يَتولّى أمرَنَاويَغفلُ عَنا.

فعادَ إلى أسْلَم وقال: انطلقْ بنا. وانطلقاً يهرولان حَتى وَصَلا إلى بيتِ المالَ وأخرَجَ عُمرُ قَدْراً من الدَّقيقِ والسَّمن وحَملهُ عَلى ظهرِه، وخادمهُ يقول:

ـ أنا أحملُه عنكَ يا أميرُ المُؤمنينَ.. فردَّ عليه قائلاً:

ـ أنتَ تَحملُ عَنى وزرْى يومَ القيامة لاأمَّ لكَ؟!

وعادَا إلى المرأةَ وأخرَجَ عُمرُ الدقيقَ، وراحَ يُساعدُها فى طَهوِّ الطَّعامِ وينفخُ فى النَّار والدُّخانُ يخرجُ من لحته حتى نضجَ الطَّعامُ. وأخذَ يُفرغ الطَعامَ فى صَفْحة ويقولُ لها: أطْعمى الأولادَ وأنَا أُبرِّدُ لك الطَعامَ.

ولَم يزلْ عُمرُ عندها حَتى شَبعَ الأولادُ، وتَركهم وَهُم يلعبونَ وَيضْحكونَ.

فَضَحكَ وهوَ يَحْمَدُ اللهَ، فقالتْ المرأةُ: جزاكَ اللهُ خَيراً، كُنتَ بهذا الأمر أوْلى من أمير المُؤمنينَ!

فردَّ عليها قائلاً: قُولى خيراً، أنك إذا جئت أميرَ المؤمنينَ وَجدتَنى هُناكَ إن شاءَ الله.

وفى الطريق يقولُ عُمرُ لخادمه «أسلم»:

ـ يا أسلمَ.. إن الجوعَ عدوٌ، لقد رأيتُ الأولادَ وهم يبكونَ، فأحببتُ أن أفارقهم وهُم يضحكونَ.

وفي خلافة عمرَ ، كان عمرو بن العاص والياً على مصرً ، وكان إبنهُ محمدٌ يسابقُ فتىً مصرياً ، فسبقَهُ المصرى ، فضربهُ محمد بن عَمرو بالسَّوط وهو يقولُ : خُذها وأنا ابنُ الأكرمينَ . وذَهَبَ المصرىْ وَشكا لأمير المُؤمنينَ ما أصابُه .

فاستبقاهُ عُمر بن الخطاب واستقدمَ عَمروا وابنهُ من مصرَ . وفي مجلس القصاص نادى عُمر : أينَ المصرى ؟ ونَاولهُ الدِّرةَ وقال له : اضْرب بها بنَ الأكرمينَ !

فتناولَ الفتى المصريُّ الدِّرةَ وراحَ يضربُ محمداً بن عمروٌ بن العَاص . فلما فرغَ وأرادَ أن يُناولها لأميرَ المؤمنينَ ، قال لهُ عُمر :

ـ أحلْهَا عل صَلْعة عمرو ، فواللّه ما ضربَك ابنُه إلا بفضلِ سُلطانه .

قال عَمرو : يا أميرَ المؤمنينَ قد استَوفيتَ واشْتفَيتَ .

وقال المصريُّ : يَا أمير المُؤمنينَ قد ضربتُ من ضربني .

فقال عمر : إنكَ والله لو ضربتُه ما حُلْنا بينك وبينهُ حتى تكونَ أنتَ الذى تَدَعهُ .

ثم التفتَ إلى عمرو مُغضباً وقال :

«أيا عَمرو ! . . متى استعبدتُم النَّاسَ وقد ولَدتهمُ أمهاتُهم أحراراً ! »

وتمضى الأيامُ ، ويخرجُ عُمرُ ذاتَ يوم من داره لصلاة الفجر ، وما أن كبرَّ للصلاة حتى خرجَ له رجلٌ فجأةً فطعنهُ بخنجره ثلاثَ طعَنَات ، واندفعَ يلوذُ بالفرار فالتفتَ عمرَ إلى المُصلينَ وهو يقولُ : أدركوا الكَلْبَ فقد قَتَلني ! .

وَهاجَ المُصلون واندفعوا نَحوهُ وهو يَطْعَنُ من يقتربُ منه بخنجره حتى قَتَلَ منهم ستَةً وأصابَ ستةً آخرون، فألقى عليه أحدُهم رداءهُ وطرحَهُ أرضاً، وعندما أيقنَ المجرمُ أنه مقتولٌ طَعنَ نفسُه وانْتَحرَ.

ولم يستطع عُمر أن يُكْمل الصلاةَ فنادَى عبدَ الرَحمنِ بن عوف أن يُقيمَ الصَّلاةَ بالناسِ، كان القاتلُ المُجرم يُدْعى «أبولؤلؤةَ النصرانى» وكانَ فارسياً.

ومماتَ عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ شهداً على يد مجوسٍّ وثنىٍّ لعين فى أواخر ذ الحجة سنة ٢٣ من الهجرة، ولقى ربَّه وقد أدَّى واجبُه، وتركَ سيرةً طيبةً لا يزالُ أريجُها يملأُ الأرضَ.

« رضي الله تعالي عنه »

« عثمان بن عفان »

(ذُو النُّورَيْنْ) ـ رضي الله عنه ـ

« لكل نبى رفيق ، ورفيقى فى الجنة عثمان »

« ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وُلِدَ عثمَانُ بنَ عفَّانَ بالطَّائف ، ونَشَأ فى أسْرة ثَرِيَّة مُتَرفة ، فَقَد كان أبُوهُ تَاجراً كبيراً شَهيراً وكانتَ أمهُ ذاتَ حَسَب ، شَبَّ الفَتَى علَى حياة رَغَدة وعيشَة هانئة . وتَعَلَّم عثمَان التِّجارة من والده ، فكَان تَاجراً ماهراً وربَح أموالاً وفيرةً وأصبَح منَ أثرِيَاء مكةَ وَبرغمَ ثَرائه كان كَريماً مُتَواضعاً سَمَحاً ، وكَانَ حَيِيّاً عَفيفاً ، لذَا أحبهُ قَومُهُ .

وَكَانَ لعثمَان بنَ عفَان عَقل رَشَيدٌ وَرَأىٌ سَديدٌ ، خَرج ذَاتَ يوم من دَاره حَائراً مُفكراً ، فَلقيَهُ أبُوبكرٍ الصِّديقَ فى إحدَى طرُق مكةَ ، وسَألَهُ :

ـ مَاذَا بكَ يا عُثْمان ؟

ـ لا شَىء غَير أن خَالتَى سُعْدىَ حدَّثَتْنى ليلةَ أمَسَ عن نَبىٍّ ظَهَر هذه الأيَام وأنَا لذلك أفكرُ فى كلامهَا .

ردَّ أبُوبكَر مُسْتبشراً فَرحاً :

ـ والله لقَدْ صَدقَتكَ خَالتُك يَا عثَمان ، وإنَكَ لرَجلٌ عاقل ، لاَ يَخْفَى

عليكَ الحقُ منَ البَاطلِ ، فمَا هذهِ الأوثَانُ التي يعبدُها القومُ إلا حجَارةٌ لا تضرُّ ولا تَنفعُ . أليسَ كذلك ؟

ـ بَلى . . هي حقاً لا تَضرُّ ولا تَنفَعُ !

ـ لقد بعَثَ اللهُ مُحمداً بنَ عبد اللَّه رَسُولاً إلىَ النَّاس جَميعاً ليؤمنوا بالله ولا يُشركُوا به شيئاً . . ألا تأتي محمَداً وتسَمعُ منهُ . . .

فَوافَق عُثمَانُ ، وانطَلقَ الرَّجُلان إلي رسول الله ـ ﷺ ـ وما هي إلا لحَظَات حتى شَرَحَ اللهُ صَدْر عثُمَانَ للإسَلام ، فأسَلمَ وهُو يومَئذ في الثلاثينَ منْ عُمْره ، وفرَح النَّبي بإسَلامه ودَعَا لهُ بالخَير ، وكانَ من المُسلمينَ الأولَينَ .

وكَانَ النَّبيُ ـ ﷺ ـ قَدَ زَوَّجَ ابنَتَه رُقَية وأمْ كُلثُوم منَ عُتْبَةَ وعُتَيبةَ ابنَي أبي لَهب ، ولمَ يكُونَا قد دَخَلا بهمَا وعَندمَا نُزَل القرآنُ بآيَات يَلعنُ فيهَا أبَا لهبٍ وزَوجَته أشدَّ اللعْن ﴿ **تبَّتْ يدا أبي لَهب وتَبَّ (١) ما أغْنَىٰ عنْه مالُه وما كَسَبَ (٢) سيَصْلَىٰ نارا ذات لهبٍ (٣) وامرأتُه حمَّالة الْحَطب (٤) في جيدها حبْلٌ مّن مّسد** ﴾ [المسد : ١ ـ ٥] عنَدئذ استَشَاط أبو لَهَب غَضَباً وغَيظاً وأمْرَ ولَديه بأن يُطلقَا بنتي رسُول الله ، فَفارقاهُمَا مُكْرَهينً فَقَد كانتْ رُقَية حسنَاءَ رائعة الجمَال ، وكَانتْ أَخُتَها أمّ كُلثُومَ كذَلكَ جميلةَ حَميدة السّجايا .

وعنْدمَا عَلمَ عُثمانُ بنَ عَفَّان بذلكَ عَرضَ علَى النَّبي أن يتَزَوجَ ابْنَتَه رُقَيَّةَ ، فَرحَبَ بذَلكَ رسُولِ الله ، وَزَّوجَه ابْنَتَهُ رُقَيَّة . وَعَاشَ عثمانُ

وزَوجَةُ رقيَّةَ فى أطيبَ عَيش وأسْعد حال .

وعنْدَما اشتدَّ إيذاءُ المشْركينَ للمُسَلمين ، جمَع النَّبى أصْحَابُه وأشَار عليهَم بالهجْرة قائلاً :

لو خَرجتُم إلىَ أرَض الحَبَشة ، فإنَ بهَا مَلكاً لا يُظْلمُ أحدٌ عنده ، حَتى يجعَلَ اللهُ لكمَ فَرَجاً ومَخْرجاً مما أنتَم فيهَ .

* * *

وهَاجَر عثَمانُ بن عَفَّان مَع زوجه رُقَيَّة إلى الحَبَشة مَعَ منَ هَاجَرَ من المُسلمينَ ، فَقَال النَّبىُّ : صَحَبهُمَا اللّه ، إنَّ عُثْمَانَ لأولُ منَ هَاجَر بأهله بعد لُوط وبَقَى هنَاكَ مدةً يتَحَملُ مع زوجه آلامَ الغُربْة ، وكَان النَبىُ يسألُ عَن أحوالهمَا .

ثمَّ عادَ عُثمَانُ إلىّ مكةَ قَبلَ الهجْرة إلىَ المَدينة ، وهَاجَر مَع زَوجه إلى المدينَة ، واستقرَ المُسلمونَ فىَ المَدينَة وكَانُوا عدداً كبيراً ، وكانتْ أول مُشكلة تواجهُ المُسلمين فى تلكَ البيئة القَاحلَة هى الماءُ فقدْ كَانت هناكَ عين ماء تُدعَى « بئرُ رومة » تَفيضُ بالماء العَذْب ، وكانَ صَاحُبها رجلاً يَهودَياً من بنَى غَفَار ، وكانَ يبيعُ ملءَ القربَة ماءً بمُدٍّ (مكيالٌ يعدلُ رَطْل) فكَانتَ هذه البئر كنزاً لليهودىّ وكانَ النبىُ ـ ﷺ ـ والمَسلمونَ يَشْتهون هذَا المَاء العَذَبَ ، وتَمنىَّ النَّبىُ لوَ أنَّ أحداً منْ الصَّحابة اشتراهَا بمَاله . وعندما سَمَع عثمَانُ النَّبىُ يقولَ « مَنْ حَفَر بئر رومة فلَه الجَنَة » سَارعَ بشرائَها من

اليَهودىّ، فَسَاومهُ الرَّجُلُ عليْها ، واشْتَرى عثمَان من اليَهودى نصْفهَا باثْنَى عَشرَ ألفَ درْهمٍ علَى أن تكَون للْيَهُودى يَوْماً ولعُثمانَ يوماً فكَان المُسلمُون يَستَقُونَ فى يوم عُثمان ويدَّخرون ما يكفيهمْ لليومِ التَّالى ، فكسدتْ بذلكَ سُوق اليهُودى من تجارة الماء .

ووَقَعَت غَزوةُ بَدر ، وكانتْ زوجُه مريَضةً فسمَح لهُ النبَّى بتَمريَضهَا ولمْ يَستَطع الاشْتراكَ معَ المسلمينَ فى هذه الغَزوْة . وانتَصرَ المُسلمونَ ، وجعلَ النَّبىُّ سَهماً لعثمَان فى غَنَائمها .

ومَاتتْ السيدةُ رُقيّة وحَزنْ عثمَانُ علَى فقدانها حُزناً شديداً ، وأرَادَ عُمرَ بنَ الخَطّاب أن يواسى عُثمَان فعرَضَ علَيَة الزَواجَ منَ ابنته حفْصَة فقَالَ عثمَانُ : سأنَظُر فى أمْرى وبعدَ أيامٍ اعتَذرَ عثمانُ عَن زواجه من حَفْصَة .

وَغَضَبَ عُمَر علَى عُثمَان بنَ عفَّانَ وراحَ يَشْكوهُ إلى النَّبى ، فرأى النَّبىُ أنْ يُرضى الطّرفين فالتفت إلى عُمَر وقَالَ : سَيزَوِّجُ اللهُ ابنتَكَ خيراً منْ عُثْمانَ ، ويُزوِّجَ عثمانَ خيراً من ابنَتك وبَعَدهَا تزَوَّجَ النَّبىُ منْ حَفْصة بنت عمَر ، وزَوجَ النَّبىُ عُثمَانَ منَ ابنَته الثَّانية « أمّ كلثُوم » ، فرَضَى عُمَر ورَضَى عثُمانَ ، وزادَتْ بيْنهمَا أواصرُ المحَبة لذَا سُمىَّ عثمانُ بن عفَّان « بذى النُّورينَ » .

وحضَر عثُمانُ مع النَّبى الغزَوات كُلّها بعد غَزوة بدر ، وكَانَ يُجَاهدُ بنَفْسه ومَاله فى سَبيْل اللّه وأرَادَ النَّبىُ ـ ﷺ ـ بَعدَ ستَ سنوات منَ الهجرةَ

أن يَزورَ بَيتَ الله الحرامَ بمكةَ ، ويعتَمِرُ هُوَ والمسْلمونَ ، وذلك عندما رأى ذاتَ ليلة في منَامة أنهُ يدخل المسجدَ الحرامَ مع أصحَابة آمنينَ مُحَلقِّينَ رؤسهم ومُقَصرينَ لا يَخَافون . . فَعلمَ النَّبيُ أنه سَيدخلُ مكةَ إنْ شَاءَ اللهُ منَ غيرْ حَرْب ولا قتَال .

وبَدَأ النَبيُ يُعدُّ المُسلمَينَ للمسير إلىَ مكةَ ، وعَلمتَ قُريشٌ بذلكَ فأرسلتْ بعضَ رجَالهَا لمعرفة قَصْد النبى ، وأرَادَ النَّبىُّ أنَ يبيّن لقُريش أنهم لا يُريدونَ إلا زيارةَ البيت الحَرام ، فأرسلَ عُثمانُ بنَ عُفَّان سَفيراً إلىَ قُريش ليلتَقى بأشرافها وسَادتها يبلغهمَ رَسَالة النَّبى . ونجح عُثمانُ فى مُهمته الشَّاقة ، وكانَ بعَدها فَتْحُ مكةَ ، ودَخَل النَّاسُ فى دينْ الله أفْواجاً .

* * *

وتمَضى الأيامُ ، وأرادَ النَّبى مُحاربةَ الرُّوم عند تَبوُك ، بين المدينة والشَّام ، وكانَ المسلمونَ حينئذ فى عُسْر وضيق ، فقد أجَهَد الجيشَ الحَرُّ وقلةُ المواردُ فسُمى جيشُ العُسْرَة ، فأسرَع عثمانُ بتجهيز الجيْش ، فتبرعَ من ماله بألف بعير وسَبعين فرَساً ، وَجاءَ إلى النَّبىُ بعشرة ألاف دينار وصَبهاَ بين يديه ، فَسُّر النَّبى سُرورَاً وقال :

ـ غَفَرَ اللهُ لكَ يا عُثمَانَ ما أسَررْتَ وَمَا أعلنَتَ . ومَا هُوَ كَائنٌ إلىَ يومَ القيَامة .

ثُمَ عَادَ النَّبى يقُولُ لأصحابه بفَرحةِ غَامرةٍ : لا يَضرُّ عُثمَانَ مَا عَملَ بَعدَها !

وَيَرحلُ النّبىُ إلى الرفيقُ الأعَلى وَيكونُ أبُوبكر خَليفةً للمُسلَمينَ ، وذَاتَ عَامٍ يُصَابُ النَّاسُ بالقَحْط الشَّديد ، وَيَشْتد بهمُ الأمرُ فيهرعونَ إلى أبى بكرَ الصديقَ ، ويقُولُونَ : يا خَليفَة رَسُول الله ، إنّ السَّماءَ لمْ تُمطر ، والأرضَ لم تَنبت ، وقَد يُدركُ النَّاسَ الهَلاكُ ، فمَا نَصنعُ ؟

فَقَال لهُمَ : انصرفوا ، واجْدوا ، فإنّى أرجُو اللهَ أن لا تَمسُوا حتى يُفَرج الله عنكم .

فلما كان آخَرَ النَّهار ذاعَ خبرٌ بينَ النَّاس بأنَ عيراً لعُثمانَ ابن عفَان قادمَةٌ منَ الشَّام ، وتُصبحُ بالمَدينَة ، فَلَمَا جاءتْ العيرُ فَرَحَ النَّاسُ يتلقَّونَها بفَرحة ، فإذَا هَى ألفُ بعير محملةً بألوان الطَّعام من خَيرات الله . وأنَاخَتْ الأبلُ بباب عُثمَانَ وجاءهُ التُّجَار مُسْرعينَ ، فسأَلهُم : ما تُريدونَ ؟

قالوا : إنَّك لتَعلمُ ما نُريدُ ، بعنَا من هَذا الذّى وَصَل إليكَ فإنَّكَ تَعلمُ ضرورةَ النَّاس وَحَاجَتهَم .

فقَال : لا بأسَ . . كم تُربحونى عَلَيها ؟

قالوا : الدِّرهُم درهمين !

فَقَال عُثْمَان : إنِّى أعطيتُ أكثَر منْ هَذا !

فتعَجَّبَ التُّجارُ وقالوا : يَا أبَا عَمرو . . ما بَقى فى المدينة تُجار غَيْرنَا وَمَا سَبَقَنا أحدٌ إليك ، فمَن ذَا الذَى أعطاكَ ؟!

فقال عُثمانُ : إنَّ اللهَ أعطَانى بِكُلِ درهمٍ عَشْرةً ، هلَ عِندكُم زيَادةٌ؟

فَقَالوا : لاَ !

قال عثمان : إنّي أشهدُ اللّه ، وأشهدكم أيُّها التُّجارُ أن ما تحملُه هذه العِيرُ مِنْ طَعامٍ هُو صَدَقةٌ عَلَى فقَراء المُسلمينَ .

وبعدَ وَفَاة عُمَر بن الخَطَاب بَايَع المُسلمونَ عُثمَانَ بالخلافة ، وكَانَ قَد جَاوزَ السَّبعينَ مِنْ عُمْره ، وأصبَح أميراً للمُؤمنين ، ولَمْ تُفَارقُه سَجاياهُ الكريمةُ ولا صِفَاتُه السَّمحةُ فَعَاشَ وَسَطَ المُسلمينَ بالمدينة مُتواضعاً لأصحَابه رَحيماً برعيَته .

فكَانَ يَنَامُ في المَسْجد أحْيَاناً وَقْتَ القَائلة (القَيلُولة) ورداؤه تحتَ رأسَه ، ويَجيءُ الرَّجلُ فيجلسُ عُثمَانَ إليه ، ويَأتِي رَجلٌ آخَر وآخَر ، ويَجلسَ عثمانُ بينهم .

وَذَاتَ يومٍ دخلَ غلامٌ المسجدَ يرتَدي ثياباً باليه ويحَملُ في يَده شيئاً ، وبينَما هُو يسيرُ في المسجد إذا به يرَى شَيخاً نَائماً ، وتَحتَ رأسه لَبنةٌ (طُوبة) ، فوقَفَ الغُلامُ ينظَرَ إلى الشَّيخ ذِي الوجه الحَسنَ ، فانتبَه الشَّيخُ وَفَتَح عينيه وسألَ :

ـ منَ أنتَ يا غُلام ؟

قال : أنَا ابنُ سَعيد .

فنادى الشيخُ عَلَيَّ خادمه وأمرهُ هَامساً أن يَأتي بشَيء من الدار ، ثمَ قالَ الشيخُ للغُلامِ : اقعُدْ هنَا بجَانِبي . وذَهبَ الخَادمُ وَجاءَ بثِيَابٍ وبألفِ

درْهم ووَضَعها بينَ يدى الشَّيخ ، فنَزَعَ الشَّيخُ ثوبَ الغُلام المسكينَ وألْبَسَهُ ثوباً جَديداً ووَضَعَ به الألفَ درهم وقَالَ للغُلامَ : اذهبْ لأهلكَ .

وخَرَجَ الغُلامُ منَ المسجَد مُسْرِعاً إلى بيْته ، فتَعَجَّبَ أبوهُ عندمَا رآهُ وسألهُ : يابُنَى مَنَ فَعَل بكَ هذَا ؟

قال الغُلامُ : لا أدرىَ . . هوَ رَجلٌ حَسنُ الوجه رأيتُه نائماً فى المسَجد ، ولَمْ أرَ قطُّ وَجْهاً أحسنَ منهُ .

فَضَحكَ الأبُ وقَال بفَرحة : ألا تعرفُه يا بُنىَّ ؟! . . . ذَاكَ أميرُ المؤمنينَ عُثْمَانُ .

* * *

كَانَ عثمَانُ ذاتَ يوم جالساً فى بيتَ المال يُباشرُ عَمَلَهُ وكَانَ معهُ أحدُ أولاده ، غلامٌ صغيرٌ ، ودَخَل خازنُ بيت المَال يحملُ مبلغَاً ويضعهُ بينَ يدى أميرَ المؤمنين ، فمدَّ الغُلامُ يدهُ وأخذَ درْهماً . فلم يعنفه عثمان ولم يَضْربهُ ، ولكنهَ نَهضَ بسرعة ليُحضر درْهماً منَ ماله ووضَعهُ بدلاً من الدِّرهم الذى أخذهُ ولدهُ .

فقَدْ كَانَ عثمَانُ بطبعه حيِيَّاً كَريماً رَحيماً بالصِّغار . وبالأمَّة ، وكانُ يُحسنُ إلى رعيتَه مِمَا دَفَعَ بعضهم فى آخرِ أيامه إلى النَيل منه طَمَعاً فى مكانَته .

وفَى خلافَته قامَ بإنجَازات جليلة لأمَة الإسلام ، كان أهمَها أنّه وحَّدَ

المصَاحفَ وأمَر بنسخ المصحف وتوزيعه علَى الأمْصَار حتَى لا يختَلفَ النَّاسُ .

وقامَ بتوسيع مسجد رسُول اللَّه . وعنْدَما همَّ بهذاَ العملَ تراضَى مع مالكى العَقَارات الُمجَاورة علَىَ استهلاكها . فَوافقَ بعضُهم ورَفَضَ آخرونَ إلا أن يتَقاضُوا مبالغَ ضَخمةً ولَمْ يَرضخ عُثمَانَ لجَشَعهم ، واستملكَ تلكَ العقَارَات وقدَّر أثمَانها ثمَ وَضَعها أمانةً لأصحابها فى بيت المال .

ولمّا تَمادُوا فى رَفْضهم حَبَسَهم عثمَانُ وهَدَمَ بيوتَهم للمنْفَعَة العَامة . . لتَوسعَة مَسجْد النَّبى ، وظَلُّوا فى السَّجن مُدةً حتى توسَّطَ لَهم عَبد اللّه بن خالد ، فأفرَجَ عُثمَانَ عنهمَ وأعطَاهُم حُقُوقَهم كاملةً غيرَ منْقُوصَة . وهَذَا عملٌ جَليلٌ يُؤكدُ حكَمتَهُ وَعزَيمتَهُ وحُسْن تَصرُّفه .

* * *

وفَى عهَد عثمَانَ بنَ عَفَان امتَدتْ الفُتُوحاتُ الإسَلامية إلىَ بلاد كَثيرة فَى غَرْب إفريقْيا وشمال الشَّام ، وأنشَأ عُثمانُ أولَ أسطول إسلامى ، وفَتَحَ الُمسلَمونَ جُزرَ البَحرَ المَتوسط « بَحَر الرُّوم » فاستولوا علىَ قُبْرص ، وانتصروا بَعْدهَا على الرُّوم فى معركَة ذات الصَّوارى وأصبحَ الأسطولُ الإسلامىُّ أقوىَ أساطيلُ العالَم آنئذ ، وبَرَغَ نجَمُ الُمسلمين فى البَحَار كما بزغَ نجمهمُ فى البلاد ، ففتَحوا مُدناً كثيرةً مثْلَ خُرَاسَان وطَبْرسَتان وكَرْمَان وسَجستَان وغَيرها .

وبَعدَ أن فتحَ المسُلمون تلكَ البلاد والأقاليمَ ، وكثُرتْ عندهم الأمَوالُ

وزادتْ الخيرات راحوا ينقمون على الخليفة ، ذلك لأنهُ عَزل بعضَ الولاة وولّى مكانَهمُ منَ رَأى فيه الكَفَايةَ منْ أقَاربه وذَوى رَحمه فأسَاءَ النَّاسُ به الظَّن ، وبدأوا يتحدثونَ عن ذلكَ وأشَعل نارَ الفتنة رَجُلٌ كانَ من اليهود يُدعى « عبدَ الله بنَ سَبأ » ويُسمى «ابن السوداء » وقدَ أسلمَ فى عَهد عُثمانَ ، لا رغبةً فى الإسَلام ، بل لإثَارة الفتنة بين المُسلمينَ .

واستَطَاع ابنُ السَوداء أن ينسجَ خيُوط هذه الفتنة فى الأمْصَار ويُؤلبُ النّاسَ على أمير المؤمنينَ ، فحضَرت وفودٌ منَ الكُوفَةَ ، والبَصرة ، ومصْر فى وَقت واحد مطالبينَ بتَولية أحد غَير عثمَانَ ، أو عَزْل مَنْ ولاّهم عُثمَان على الأمْصَار .

واستَقامَ الأمْرُ أخَيراً عَلى إجابَتهم لمّا طَلبُوا منْ عَزْل بعَض العُمّال . واخْتَارَ أهل مصْرَ أن يولّى عليهم « مُحمد بن أبَى بكْر الصدّيق » ، فكَتبَ عُثمَانَ لهُم بذَلكَ عَهْداً ، ورَحَلوا من المدينَة مَع واليهُمْ الجَديدُ .

وبينَمَا وَفْدُ مصرَ رَاجعُونَ إلى بَلدهم ، إذا بهم يَروا عَبْداً منْ عَبيد الخليفة عَلى راحلَة من إبلِ يستحثُّها ، فأوقَفوه وفَتَشوه ، فوَجَدوا مَعه كتاباً مخَتوماً بختمَ الخليفة « لعبد الله بن أبىَ السَّرح » والى مصر ، مضمونه :

« إذا قَدمَ عليكَ ابن أبى بكر ومَنَ مَعهُ فاحْتَلْ فى قَتْلهم .

فأخَذُوا الكتَابَ ورَجَعوا إلى المدينة وأطلعوا أمير المؤمنينَ عَليه ، فأقَسمَ لهمَ عُثمانَ بأنه مَا فَعلَ ، ولا أمَر ، ولاَ عَلمَ . فقالوا :

ـ هَذا أشدُّ !! ، يُؤخذ خَاتمكَ ، وبعَيرٌ من إبلك ، وعَبدٌ من عبيْدَكَ

وأنتَ لا تَعلمُ ؟! . . ما أنت إلا مغلوبٌ على أمْرِكَ !

وَطَلبوا منْ عثمَانَ أنْ يَعتَزِل الخلافة ، أو يسلِّم لهمَ كاتبَ الكتاب ، فرفَضَ ، فَحَاصَرَوهُ في داره وَمَنَعوا عنهَ الزَّاد والمَاءَ أياماً معدودةً .

ومَاجَ الثُّوارُ وهاجُوا ، وكَثُرَ الكلام بينَ النَّاس ، فطَلبَ بعضُ الصحَابة أن يأذنَ لهمَ عُثْمَانُ بالتَّدخلُ والدَّفاعَ عَنْهَ ، فلمَ يَقْبَل ولمَ يأذنَ لأحد . وقالَ لعَبيده الذينَ هَبُّوا للدفَاعِ عنهَ : « من أغْمَدَ منْكم سَيفُه فهُوَ حرٌ » .

وَأرسَلَ عليُ بنَ أبي طَالب ولَديه الحسنُ والحُسينُ لحمَاية الخلَيفة منَ غَضبْة النَّاس ، وقبلَ أنَ يَصلاً إلىَ دار الخَليفة ، كانَ بعَضُ الثُّوار قد تَسلَّقوا الدارَ ودَخَلوا علىَ عثمانَ وقَتَلوهُ والمُصحفَ بينَ يديه يتْلو فيه سورةَ البقَرةَ ، فَنَزلتَ قطرةٌ من دمَائه الذَكية عَلى كلمة : « فسَيكفيكهمُ اللهُ » ومَاتَ عثمَان وكانَ صَائماً لكيَ تتحقَقَ الرؤيَة التي رأها في منَامه ليلتَها ، فقد رأى رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ يَقُولُ له :

« أفْطرْ عندَنَا غداً يَا عثمَانٌ ! »

وانتَقلَ عُثمَانُ بنَ عَفان إلى الرَّفيقِ الأعَلى ليلحقَ بأصحابهِ الأبَرارِ رسولُ الله ، وأبوبكَر وعُمَرٍ .

« رضي الله عن عثمانَ بنَ عَفانَ » .

« علىّ بن أبى طالب »

(كَرَمَ الله وجهَه) رضي الله عنه

« أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كانَ علىٌّ بنُ أبى طَالب يُقيمُ فى بيت مُحمد ـ ﷺ ـ، وكانَ لا يَزالُ فتىً صغيراً والنبىُ يكَفيه وكَانَ الوحىُ قَد نَزلَ عَلى النَبى ، ولمَ يكُن أحدٌ قدَ آمنَ بالإسلامِ سوى السيدة خديجة زوجُ النّبى وذَاتَ يوم كانَ النّبى يُصلَى سراً فى إحدَى غُرف البيت ، وكَانتْ خديجة زوجهُ تُصلى خَلْفهُ ، فإذا رَكَعَ ركَعتْ ، وإذَا سَجَد سَجدتْ . . .

ودَخَل عليهمَا علىٌّ وَهُو لا يَعْرفُ أنهمَا هنُاكَ ، وقَبل أن يُغْلقَ دُونَهمَا البابَ وينَصرفَ ، لَفَتَ انتَبَاهَهُ صَوتُ النبىُ وهُو يُرتل القُرآنَ ، وحَركَات الرُّكوع والسُّجود ، فوقفَ ينَظرُ إليهمَا بدهشَة فلمَ يكُن أمامَهُما وَثَنٌ ولا صَنَمٌ ، حتَى إذا فرغَا منَ صَلاتهمَا راحَ علىّ يسأَلُ النّبى : مَاهذَا ؟

قَالَ النبىُّ : هَذاَ دينُ الله الذى اصطفَاهُ لنفسه ، وبعثَ به رُسُله فأدعوكَ إلى الله وحدهُ لا شريكَ له ، وإلى عبادته وأن تَكفرَ باللاّت والعُزّى .

فقال علي : هَذا أمرٌ لم أسمعْ به من قَبْلُ ، أرى أن تُمهلني إلى غدٍ حتَى أشاورَ أبَا طالب .

وَخَشَى النبيُ ـ ﷺ ـ علَى سَرّ الدِّينِ الجديدِ وهُوَ لَمَ يزلْ في مَهده فقَالَ لهُ :

ـ يَا عَليُّ . . إذا لم تُسلمْ فَاكتُم هذَا الأمرَ ولاَ تُحدِّث فيه أحداً .

وأدَركَ عليٌّ بفَطرته ، وبَعَد تَفكير ، أنَّ ما يقولُهُ مُحمَدٌ بنُ عمِّه هُوَ الصَّوابُ والحَقٌّ ولمَ يكَدْ الصُبحُ يُطلعُ حتَى هَرعَ عليٌّ إلى النَّبي واستأذنَ عليه فَي الدُّخول وقالَ للنبَّي :

ـ أعدْ عَليَّ ما عرضتُه بالأمس .

فأعادَ عليهَ النبيُ الدعوةَ : أن تشَهَدَ أن لا إله إلاَ اللهُ وحده لاَ شريكَ لهَ ، وأن تكفَر بالأصنَام .

فردَ عليٌّ : يا ابنَ عمِ . . إنّي سَمعتُ وأجَبْتُ .

ففرحَ النّبيُ ، وربَّتَ عَلَيَه فيَ حَنّانٍ وسَألهُ : أجَبتَ وَلمَ تُشَاورَ أبَا طَالب . . أبَاكَ ؟!

فَردَ عليٌّ قَائلاً : يا ابَنَ عَم . . مَا كُنتُ لأشاورَ أبَا طالبٍ فَي ديني ، فاللهُ خلقَني ولمَ يُشاورهُ في خَلقي .

عندئذٍ عَانقَهُ وقدَ سَرّهُ فَي الفتَى نَقَاء فطرته ، وذكاءَ نفَسهِ ،

ورَجَاحـةَ عَـقله ، وكَـانَ عـليٌّ بن أبي طَالب بذَلكَ أولَ من أسلَمَ منَ الفـتيَـان ، وأصبَـح عليٌّ يلازمُ النَّبي ويُصَلي معـهَ . رأهُمَـا ذاتَ يَوم أبو طَالب وَهُمَا يُصلّيان في إحدى شعَاب مكـةَ فقالَ لرَسُول الله :

ـ يَا ابنَ أخي . . مَاهَذَا الدِّينُ الذّى أراكَ تَدينُ به ؟

فَقَالَ النّبىُ :

هَذَا دينُ الله يا عمّ ، ودينُ مـلائكته ورُسُله ، ودينُ أبينَا إبراهيمَ بَعثَنى اللهُ به رَسُولاً إلى العبَاد ، وأنتَ ياعمُّ أحقُ من بذلتُ لهُ النَّصيحةَ ، ودعوتُه إلى الهُدى ، وأحقُّ من أجابَنى إلى الله تَعالىَ وأعانَنى عليه .

وفكَّر أبو طالب فى كلامِ النَّبى ثم قال :

ـ يا ابنَ أخي . . لا أدرى أحَقٌ ما تَقولُ أمَ لاَ ، ولَكن لاَ أستطيعُ أن أفارقَ دينَ آبائى وما كانُوا عليه .

ثُمّ التَفتَ إلى عليٍّ ابنهُ وسألَهُ : وأنتَ ؟

فقالَ عليٌّ : يا أبت إنّى آمنتُ بالله ورَسُوله ، وصَّدقتُ مَا جَاءَ به .

فقَالَ له : أما أنَّهُ لمْ يَدْعُكَ إلاّ إلى خيرٍ فالزَمهُ .

* * *

تَرَبىَّ عليٌّ بن أبى طالب وشبَّ فى بيت النّبى ـ ﷺ ـ ، فَنَشأ على مكارم الأخلاقِ وكـان عَفيفاً طاهـراً شُجَاعـاً ، وكـان يُحـبُ النّـبىَ حبـاً جَمّاً .

وعندماَ عزمتْ قُريشُ علَى قتْلِ النّبى ، أخبرَ اللهُ نبيّهُ بالأمر وأمرهُ بالهجرة إلى المدينَة ، فأعدَّ النَّبيُ نفسَهُ للهجرَة وجعَل علياً يَبيتُ في مكانه ليُوهمَ الكفَّارَ أنَّ النَّبى لا يزالُ بالبيتِ . وخرجَ النبيُ مع أبي بكرٍ الصِّديق إلى المدينة .

وبَاتَ الفتَى عليٌّ بن أبي طالب تلكَ الليلة الرهيبة ليلةُ الهجْرَة غيرَ هيَّاب ولا وَجل ، وعندمَا اقتحمَ المشركونَ بيتَ النَبيِّ شاهرينَ سُيوفهم لم يجدُواُ إلا علىَّ نائماً في الفراشِ قَريرَ العينِ ، فخابَ رَجاؤهُم وخابَ مَسْعاهم !

وبَقى عليٌّ بن أبي طَالب بمكةَ مُدة لكَى يرُدَّ الأمَانات والودائعِ التى كانت عنَد النَّبى لأصْحَابها . فكانَ هذاَ الفتَى شُجَاعاً أميناً .

وكانَ عليٌّ بن أبي طالب يُلازمُ النبَى ويحضُرُ الغزَوات والمَعارك ، وعندمَا أرَادَ النبيُ فتحَ حُصونَ خيبر وتأديب اليهود كانَ عليٌّ رَمداً (أى مَريضاً بالرّمَد) ، ولكنّهُ لمْ يتخلّفَ عَنِ المعَركة ولحقَ بالنّبى وفي المساء قَال النبّيُ لأصَحابه :

ـ لأعطيَّن الرايَة غداً رجلاً يُحبُه اللهَ ورسُولَه ، يفتحُ اللهُ عليه .

فكَانَ كلُ صَحابى تحُدّثهُ نُفسهُ بذلكَ ويُمنّى نفسه بإمارَة الجَيش وقيادَة هذه الغزوة ، وفى الصبَّاحِ دعا رسولُ اللَّه علياً وأعطاهُ الرايةَ ثمَ قال له نَاصحاً :

ـ امشى وَلاَ تَلتَفتْ حتَى يفَتَح اللهُ عليكَ .

فَسَارَ عليٌّ قَليلاً ثم وَقفَ ولمْ يلتَفِت ، فَصرخَ : يا رسُولَ الله عَلى ماذا أقاتِلُ النّاسَ ؟

قَال النبَّى : حتَى يَشَهدوا أنْ لاَ إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمداً رسَولُ الله ، فإذَا فَعلوا ذلكَ فقَدَ مَنَعُوا منكَ دماءَهم وأمَوالهَم إلا بحَقِها وحَسَابُهم علىَ اللهِ ، وَفَتحَ اللهُ علَى علىّ بن أبى طَالب .

وعندَمَا كَانتْ غزوةُ تبوك ، أمَرهُ النّبىُ أن يَبْقَى فى المَدينَة ، وكَانَ علىٌّ يريدُ الاشتَرَاكَ فى الحربِ ، فقالَ للنّبَى : يَارسُولَ اللهِ تُخْلِفنى فى النسِّاء والصبْيان ؟

فقالَ النبَّىُ : أمـا تَرْضَى يَا عَلىُّ أنْ تكونَ بمنْزلة هارونَ من مُوسى؟ . . . غير أنّه لا نبىَّ بَعدى .

وتزوجَ علىٌّ بن أبى طالب منْ فَاطمةَ الزَهْراء بنْتَ النَّبى فزادتْ أواصرُ القُربَى والمحبة بين النَّبى وعلىٍّ وكَانَ النّبىُ يزورُهَم كثيراً . وذَاتَ مرةٍ ذَهَبَ النّبى إلى بيتَ فَاطمَة ابنَتُه فَلمَ يَجْد علياً فسَألهَا : أين ابن عَمَك ؟

قالتَ : كَانَ بَيْنى وبَينهُ شىءٌ فَغَاضَبنى فَخَرَج ، ولمْ يَمكثْ ساعةَ القَيلولةِ عِندى .

فقال النَّبىُ لَرجُل : انظُر أينَ هُو ، فعادَ الرجلُ يقولُ : يا رسُولَ الله هوَ فى المسجد راقداً .

فذهبَ النبّىُ إليه فَوجَدهُ مُضْطجعاً قد سَقَطَ رداؤهُ عَن شقّه وأصابَه تُرابُ فدنا منهُ النَّبى وراحَ يمسحُ التُّرابَ عنه ويقَولُ له مُداعباً :

قُمْ يا أبا تُرابٍ ! . . قم يا أبَا تُرابٍ !

* * *

وَعَاشَ علىٌّ مع زَوجْة فاطمةَ الزُّهراء عيشة هانئةً يَغمرُهَا الإيمَانُ ، وتَتَخللَّهـا أحياناً أوقَاتُ فَقر وشدّة ، وكَانتً السيدةُ فاطمةُ تَساعدُ زَوْجَهـا وتَقَـومُ بشئون البيتِ . . تَعجنُ وتَخبزُ وتَغَسلُ وتكنُسُ ، وتحلبُ الشِّياهَ .

خَرجَ علىٌّ ذاتَ يومٍ طلباً للعمل فى عوالى المدينَة (مكان قربُ المدينة) ، فوَجدَ إمرأةً تجمعُ التُّرابَ والحَصَى وتُريدُ أن تَجعلَ منه طيناً ، فاتفَق علىٌّ مَعَهـا على أنْ يُساعدها فى حَمَل الماء ، كُلُّ دَلو بتمرة ، وراحَ يستخرجُ لها الماءَ والمرأةُ تَعد لهْ حتى تعبَ فأخَذَ حَقّهُ من التَمْرّ ، وَعَادَ إلى البيت ليُطعم أهْلَهُ . .

وعَندَمَا أخبْرَ النّبَى بذَلكَ ، أكلَ من التّمرِ ودَعَا لعلىَ بالخَيْرِ والبَركَة .

وكانَت الأسْرَةُ تَعيشُ علَى الكفَاف ، وتُنْفقُ أيضاً فى سبيل الله أخذَ علىٌّ مَن رجل يهودى صُوفاً لتغزلَهُ السَّيدةُ فاطمةُ زَوْجُه بالأَجرَ ،

ثُمَّ اشْترى بأجرها ثلاثةَ أقداحٍ من الشَّعير ، وذاتَ يومٍ طحنوا قدحاً وخبزوهُ أقراصاً .

وَعَنْدماَ جلسوا لتناول الطَّعام طَرقَ بابَهم مسكينٌ وَقال : السَّلامُ عَلَيْكُم يَا أهْلَ بيْت النُّبوة ، أنَا مسكينٌ منَ مساكين أمُة مُحمد - ﷺ - ، أطعمُوني شَيئاً لله ، فأعطُوهُ أقراصَ الخُبْز . وباتوا على المَاء .

وفي اليوم الثاني طَحَنوا قَدَحاً ثانياً وخَبزوهُ ، وَعنْدمَا أرادوا الأكلَ طَرق بابَهم يَتيمٌ جَائعٌ ، فأعطوهُ الطَّعامَ وبَاتوا على المَاء . وفي اليومِ الثَّالث طَحنوا القَدحَ البَاقي منَ الشَّعير وخَبزوهُ ، وعندمَا جَلسوا لتنَاول طَعَامهم طَرقَ بابهُم أسيرٌ جائعٌ فأعطوهُ أقراصَ الخُبز وأخذوا يَشْربونَ الماءَ . وجَاع الأولادُ . الحَسنُ والحسينُ جُوعاً شديداً ، فخرج عليّ إلى النبي - ﷺ - وأخبَرهُ بذلكَ ، فَأعطاهُ النَّبي سلَّةً وقال لهُ : اذهبْ بهَا إلىَ تلكَ النَّخلة . ونَزَلَ القُرآنُ الكريمُ فيهم يَحمدُ سُلوكَهُم : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾

[الإنسان : ٨] .

وكانَ النَّبيُ - ﷺ - يَثقُ في مَقْدرة عليّ بن أبي طالب على الحُكم والقَضَاء بيْن المسلمينَ فذاتَ يومٍ كانَ النبيُ جالساً مع بعضَ الصَحابة ، فجاءهُ خَصْمان ، فقالَ أحدهُما :

- يا رسُولَ الله ، إنَّ لي حماراً ، وإنَّ لهَ بَقرةً ، وإنّ بقرتَه قتلتْ حماري ! فقالَ رجلٌ من الحاضرينَ : لا ضَمانَ على البَهَائم .

نَظَرَ النّبىُ إلى علىٍّ وقالَ : إقْصدْ بينْهُما يا علىُّ .

فقالَ علىٌّ : هلْ كاناَ مُرسَلين أمَ مَشْدُودَين ؟ أم كان أحدَهُمَا مشَدوداً والآخر مُرسلاً ؟

فقال الرجلان : كانَ الحمارُ مشدوداً ، والبقرةَ مُرسلةٌ وصاحبها معها .

فقالَ علىٌّ : على صَاحب البقرة ضمانُ الحمَار .

فتَبسَمَ النبىُ ـ ﷺ ـ إعجاباً بقضَاء علىٍّ ، وأقرَّهُ ومنْ بَعْدهَا أرسلهُ النبىُ إلى اليمن ليَقَضى بينهم ، فقَال علىٌّ : يَارسُولَ الله بُعَثْتَنى وأنا شابٌ لأقضى بينْهُم ، وما أدْرى مَا القَضَاءُ ؟

فَضَربَ النَّبىُ صَدرَ علىٍّ ضَربةً خفيفةً ثم قالَ : اللهمَّ اهد قلَبهُ وثَبتْ لسانَهُ ، فكانَ علىٌّ مُوفَقاً فى حُكْمه وقَضائه بيَن المُسلمينَ فى اليَمنَ .

* * *

وفى خَلافة عمَر بن الخطاب جىءَ بَرجُل إلى عمَر بن الخَطَاب مُتهماً بما قَالهُ ، فَقَد قالَ لجماعة من النَّاس عنَدَما سألوه : كيف أصبَحتَ ؟

فَقَال الرَّجلُ : أصبْحتُ أحبُّ الفتنَةَ ، وأكْرهُ الحقَّ ، وأصدِّقَ اليهودَ والنَّصارىَ ، وأؤمنُ بمنَ لا أرَى ، أقرُّ بما لمَ يُخلق .

وتحيّر عُمرُ ، فكلامُ الرَجلِ يَبدو فى ظاهره الكُفرُ والرِّدةُ ولم

يتعجل عمر في حكمه على الرجل وأرسل إلى علي بني أبي طالب وأخبره بمقولة الرجل .

فقال علي : صدق الرجل ، إنه يحب الفتنة لقوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ [التغابن : ١٥] ، ويكره الحق ، يعني الموت ، لقوله تعالى ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾[ق : ١٩] ويصدق اليهود والنصارى لقوله تعالى ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾[البقرة : ١١٣] ويؤمن بما لم يره ، أي يؤمن بالله عز وجل ، ويقر بما لم يخلق ، يعني الساعة .

فأعجب عمر بذكاء علي ، وقال : أعوذ بالله من معضلة لا علي لها وكان عمر بن الخطاب يستشير علياً في بعض الأمور لما عرف عنه من سداد الرأي ، وحصافة الفكر ، وحسن التدبير .

ثم ولي علي بن أبي طالب الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان ، فكان رحيماً بالأمة يقضي بالحق ، مر علي ذات يوم بالسوق ، فرأى جارية تبكي عند أصحاب التمر ، فدنا منها وسألها : ما شأنك ؟

قالت : باعني التاجر التمر بدرهم ، فردته مولاي ولم يقبله

فقال علي التاجر : يا صاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهمها فإنها خادم ، وليس لها أمر فدفع التاجر علياً وهو لا يعرفه ، وكان بعض المسلمين حاضراً فتعجب الناس وقالوا للرجل : أتدري من الذي دفعته بيدك ؟

قال الرجل : لا .

قالوا : هو أمير المؤمنين .

فصبَّ الرجلُ تمرها فى الحال وأعطاها درهمها ، وراحَ يعتذر لعلى ـ أمير المؤمنين .

وقَبِلَ علىٌّ عُذرهُ ، ونصَحهُ أن يُوفى النَّاس حُقوقَهم .

وكَانَ علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ أميناً على مال المُسلمينَ عادلاً بين رعيته ، كان فى بيت المَال عقدٌ جميلٌ من اللؤلؤ ، فاستعارقهُ ابنتهُ من خَازن بيت المال لتتجمَلَ به يوم عيد الأضحى فأرسلهُ الخازنُ إليها عَاريةً مَضمونةً ، تُردُّ لبيت المال بعد ثلاثة أيام .

وفى يوم العيد رأى علىٌّ عقد اللؤلؤ فى عُنُق ابنته ، فعرفهُ وسألها :

من أين لك هذا العقدُ يا بُنيتَّى ؟

قالت : استعرتهُ من خازن بيت المَال يا أبى لأ تزَينَ به فى العيد ثُمَّ أردُّهُ .

فغَضَبَ علىٌّ وأرسلَ إلى خازن بيت المَال ، وراحَ يُوبخهُ على إعَارته العقد لابنته بَغير إذنه ، وبغَير رضَا المُسلمينَ .

فَقَال الخازنُ بدهشة : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّها ابنتكَ ، وقد طَلبتُه منى عَاريةً مردودةً ، تردهُ إلَّى بيت المالَ بعد ثلاثَة أيام .

فقالَ علىٌّ : رُدَّه الآن إلى بيت المَال ، ولا تَعُدْ لمثْل ذلكَ .

ثم التفتَ إلى ابنته وأخذ يَلومها على ذلكَ ، فقالتَ له :

ـ يا أميرُ المؤمنين ، أنا ابنتكَ ، وبضعةٌ منكَ ، فمن أحقُّ بلبسه منّى ؟

فردَّ عليٌّ قائلاً : أكلُّ نساء المهاجرين والأنصار يتزينَّ فىَ هذا العيد بمثَل هذا العقد ؟! فخجلتْ ابنتهُ المؤمنةُ ، وأعادت العقدَ إلى بيت المال .

كانَ عليٌّ قد تركَ المدينةَ واتخذَ الكُوفةَ مَقراً لحكومته ، وقامَ بتغيير بعضَ الولاة الذينَ كانوا سَبَباً فى الخُروج على عُثمان ، وعيَّن غيرهم ما رأى فيه صالحُ الأمة وهُدوء الخَاطر وما لبثَ أن خَرجَ عليه طلحة والزُّبيرُ ولحقا بعائشةَ زوجْ النبى ـ ﷺ ـ وحرضاها على المطالبة بدم عُثمان بن عفان فانضمَّ إليهم كثيرٌ من المُسلمينَ ، وسَاروا بنحو ثلاثين ألف مقَاتل إلى البَصرة ، وحَاربوا واليها وهَزموهُ ، فلما علم الإمامُ علىَ بذلكَ سارَ إليهم فى عشَرة آلاف رَجُل وحاربَهم ليردُّهم عمَّا هم فيه ، وهَزمهم وقُتلَ فى هذه الواقعة طلحةَ والزُّبيرُ ، وكانتَ السَّيدة عائشة أثناء القتَال فى هودجهَا على جَملَ ، فسُميت هذه الواقعةُ (واقعةُ الجملَ) ، وبعد انتهاء الحرب التقَى الإمامُ علىٌّ بالسيدة عائشة وأكرمَهَا وردَّها إلى المدَينة عَزيزةً كريمةً وكَانَ معاويةَ بنُ أبى سفيان قد امتنَعَ عن مُبايعة علىٍّ بالخلافة ، فأرسلَ إليه الإمامُ على يدعوهُ إلى الطّاعَة والدُّخول فيما دخلَ الناسُ فيه ، فأبى معَاويةُ قائلاً :

ـ حتى نَقْتُل قاتلَ عثمَان ، ويختَار المُسلمون لهم إماماً .

ودعا مُعاوية نفسهُ بأمير المؤمنين ـ وكان آنئذ والياً على الشام

واستعدَّ لمحاربة علي وعلمَ عليٌّ بذلكَ ، فتحرّكَ بجيشة لمحاربة مُعاوية ، فالتقى الجيشان في « صفّينَ » قَريةٌ على نهر الفُرات ، وطلبَ عليٌّ من معاويةَ المبَايَعَةَ والرُّجوعَ عن الحرب حقناً لدماء المسلمين ، فرفض معاويةُ وأصرَّ عليّ موقفَه فدارت بينهما حربٌ شَديدةٌ قُتل فيها كثيرٌ منَ المسلمينَ وسُميتَ هذه الواقعة (واقعةُ صفّين) .

وبعد مُدة بدا الضَّعف والسَّأم على جيش مُعاوية فرجَع إلى الشّام ، ورجَعَ عليٌّ إلى الكُوفة .

وانتشَرتْ الفتنُ بين المسلمين ، وتَفَرّق النَّاسُ أحزاباً ، بعضهُم مع الإمام عليٍّ ، وبعضهم مع مُعاويةَ ، وكان عليّ يُحاولُ جاهداً إخمادَ هذه الفتن ، ولكن دُون جَدوى فراح يستغيث بالله طالباً منه أن يلحقهُ بمن سبقه من الصّالحين .

كَان من عَادة الإمام على أنْ يخرجَ كلَّ ليلة فى الطُّرق منادياً ليوقظ النَّاسَ للصَّلاة ، وتربَّصَ به ذاتَ ليلة « ابن ملْجَم » وضربهُ بالسَّيف فشجَّ رأسهُ ، فصاح عليٌّ : قَتَلَنى الرَّجُلُ . . لا يفوتنكم . فأسرعَ بعض الرِّجال وقبضوا عليه .

ثم حملَ النّاسُ الإمامَ عليّ إلى بيته تسيلُ دماؤهُ الذكية على ثوبه الطَّاهر ، وعنَدما رآهُ أولادهُ ، فزعوا فدعا ولديه الحسنَ والحُسينَ وأوصاهُما قبيلَ مَوته :

« يا بَنى عبد المطلب لا تَخوضوا دماءَ المُسلمينَ خَوْضاً تقولون قُتلَ أميرُ المؤمنين ، ألا لا تَقْتُلنَّ بى إلا قَاتلى ، انظروا إذَا أنَا متُّ من ضَربته هذه ، فاضربوهُ ضَرْبةً مثلها ، ولا تُمثّلوا به ، فإنى سَمعتُ رَسولَ الله - ﷺ - يقولُ :

- إيَّاكم والمُثْلَةَ ولو بالكلب العقور .

ومَاتَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بن أبى طالب فى شهر رمَضانَ سنة أربعينَ من الهجْرة وكَانَ عُمره إذْ ذَاك ثلاثٌ وستون سنةً ، وقُتلَ « ابنُ مَلجم » بعد موتِ أَميرِ المؤمنينَ ودُفنَ الإمامُ عليّ ببلدةٍ تُسمى « النَّجفُ » .

« رضي اللهُ تعالى عنهُ »

* * *

« أبوعُبيدة بن الجَرَّاح »

« إن لكل أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة

أبو عبيدة بن الجراح »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أَسْلمَ أبُوبَكر الصّديق وكـانَ مُحبـاً للخَيـر ، فَراحَ يَدعُو أصدقـاءَهُ المُخْلصينَ إلى الدّعوة الجَديدةِ ، وذَهَبَ إلى أبى عُبيدة بنْ الجَراحِ وَعَرضَ عليه الإسْلامَ .

أصْغَى أبُو عُبيدةَ إلى كَلامِ صَديقه أبى بكرٍ ثمّ قالَ :

ـ أرَى إن تُمْهلَني يا صَاحبَى إلى غَدٍ لأفكرَ فى الأمْر .

وبَاتَ أبُو عُبيدة يُفكرُ فى الدَّعوة الجَديدة بعُمق . ويُفَكرُ فى مُحمّد بن عَبد اللّه ، ذلكَ الرَّجلِ الصَّادق الأمين ، وتَمرُ اللّيلَةُ وَقَد شَرَحَ اللّهُ صَدرَ أبى عُبيدَة للحَقِّ وأنَار بصيرَتهُ للهُدى ، فعزَم على شَيء .

وَفى اليَومِ التَالى مَرَّ أبُوبكرٍ عَلىَ صَاحبه وسألهُ عنْ مَوقْعه منَ الدَّعوة الجديدة فقالَ أبو عُبيدة :

ـ حَدثَتنْى نَفْسى بمَا هُو خيرٌ ، هيّا بنَا إلىَ صَاحبكَ .

وَدَخَلَ أبُو عُبيدةٍ على رسَول اللّهِ ، وأعْلَنَ بَيْن يَديه إسلامُه ، وعَاهَد

النَّبى على إعلاء شأن الإسلام والعَمل عَلى نُصرَته ، وهكذا كانَ أبُو عُبيَدة مِنَ السَّابقينَ الأوَلينَ إلى الإسلام .

ويَشتَّد إيذاءُ المُشركينَ للمُسلمينَ ، فيشيرُ النَّبىُ إلى بَعض أصحَابه بالهجْرَة إلى الحَبَشة حَتى يَجعلَ اللهُ لَهُم من الشّدة مَخْرجاً ومَنَ الضِّيق فَرَجاً ويُهاجرُ أبُو عَبيدَة ابن الجَراح مَع نَفَر من المُسلمينَ إلىَ الحَبَشة ، ويَعيَشُ معَ رفَاقه هنُاكَ فى غُربَة عن الوطن والأهَلِ ، وفى شَوق إلى رسُول الله وإخَوانه فى مكَةَ .

ويَأتيَهمُ نبَأ هجَرة النّبى إلى المَدينَة ، حيثُ هَاجرَ بعَضُ الصَّحابة ، وَفى المَدينَة أنصارٌ للدِّين وأخُوة للمُسلمينَ ويَطيُر أبُوعبيدَة فَرحاً بهذا النبأ ، ويغَادرُ الحَبَشةَ معَ إخَوانه المؤمَنينَ ثمَّ يُهاجرُ إلى المدينة ليلحقَ برسول الله .

وَفى المدينْة يبدأ مُجتَمعٌ إسلامىٌ جَميلٌ ، تعاونٌ وحُبٌ ، وإخلاصُ وَوفاءً وسرَعَانَ مَا تأتى المُواجهُة بيَنَ المُسلمينَ فى المدينةَ والمشُركينَ فى مكةَ ، ويكونُ اللّقاءُ الأولُ عنْد بئر بَدر ويخُرجُ أبُوعبيدةَ بن الجَرَّاح مجُاهداً فى سَبيل اللّه فى غَزوة بدْر ويُبلى فى المعركة بلاءاً حَسَناً ، وتكونُ الغلبةُ فى الميدان لجَيش المُسْلمينَ ، ويَلمحُ أبُوعبيدةَ أباهُ فى مَيْدان المعَركة فى صفُوف المشركينَ . فيتحولُ عنه بسيْفه إلى مكَان آخرَ .

لكنَّ الأبَ المشْركَ تأخُذهُ الحمَيّةُ فيُطاردُ ابنَه يريدُ قَتْلهُ وَيلتقى الرَجُلان أبوُ عُبيدة وأباهُ وَجْهاً لوجه ، ويُوجهُ الأبُ ضربةً قويةً ، يتَفاداها أبُو عَبيدةَ بمهارة ، ويَفرُ من أمام أبيه حَتَى لا يكونَ سَبَباً فى قَتْله ، ولَعَلهُ يهتَدى .

ويَصولُ أبُوعبيدةَ في المعَركة يقَاتلُ المُشركينَ ، ثُمَّ يلتَقي بأبيه مرةً أخْرى وجهاً لوجه . والأبُ مُصَممٌ على مُبارَزة ابنه وقَتْله . ولَمْ يَجدْ أبُو عبيدة بُداً من المواجَهة ، وتَلتَقي السُّيوفُ في عُنْف ، وفي لَمحة يُغمدُ أبُو عبيدةُ سيْفَهُ في صَدر أَبيه ، فيَهوى الأبُ صَريعاً تَنزفُ منْه الدِّماءُ ، قتَلَ أبُو عُبيدة أباهُ وهُو آسفٌ على ذَلكَ ، فَلقَد كانَ يتَحاشى لقاءَهُ ، وكمْ تمَنَّى لأبيه الهدايةَ ولكنْ هكَذا شَاءتْ الأقْدارُ .

* * *

وتُغادرُ قَريشٌ أرضَ المعَركة وهي تَبوءُ بالهَزيمة ، لكنَّها تُصَممُ على الثَّأر والانتقام ، وتُعدُّ نفسَهَا لمعَركة حَاسمة ، وتَأتَي غَزوةُ أحُد ، ويقفُ النَّبيُّ قَائداً لجيش المُسلمينَ ، يُصدرُ تَعليماته للجنُود وللرّماة منَ فوق الجَبل بعَدم مغُادرة أمَاكنهم ، ويلتَقي الجَيشَان في مَيدان القتَال ، ويحققُ المُسلمونَ نَصرَاً غالياً ، ويَفرُّ المشْركونَ تاركينَ الميدانَ ، ويَنشَغلُ المسْلمونَ بجَمع الغَنَائم ، وينْزلُ الرُّماةُ منَ فَوق الجَبل طَمَعاً في الغَنَائم ، لكنَّ المشْركينَ يعودونَ منْ وراء الجَبل ويهَجمون علىَ المُسلمينَ ، وسُرعانَ مَا تتغَيرُ الأحوالُ وتَسودُ الفَوضَى في صُفوف المُسْلمين ، وتُصبحُ الغَلبةُ للمُشركينَ الذَينَ يُكثِّفُونَ هُجومَهم ، ويُصوبُون سهامَهم نحو النّبي .

ويَلمحُ أبُوعبيدةُ منْ بَعيد رَسُول اللَّه تَسيلُ منْ وَجْهه الشَّريف الدِّماءَ ، فيطيشُ صَوابهُ ويُسرعُ إلى رسول الله ليَذودَ عنهُ بنفَسه ، ويفتَديه بجسمه وفَي تَلكَ اللحظَة يُسرعُ أبُوبكرٍ الصَّديق نَحو النَّبي ، ويلتَقي الرَجُلان أمامَ النَّبي لنَجدته ونُصرته .

كَانَ النَّبىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَمسَحُ الدَّمَ الْمتساقطَ منْ وَجهه الشَرِيف وَهوَ يرَدِّدُ فى حُزن وأسى :

كَيفَ يُفلحُ قومٌ خضبُوا وَجهَ نبيِّهم وَهوَ يدعوهمْ إلى رَبِّهم ؟!

كَانتْ حَلقتَان منْ حلَق المغفَر الذى يَلبَسهُ النَّبىُّ فَوقَ رأسه فى المعركة قد دَخَلتا فى وَجنته الشَّريفة ، والدِّماء تَنزفُ منهَا فاستأذنَ أبُوعبيدةَ أبابكر ليَقومَ بنَفسه بنَزعها منْ وَجه النَّبى ـ صَلى الله عَليه وسَلم ـ ، فنَزَعَ واحدةً وسَقَطتْ معَها ثَنيَّةُ أبى عُبيدَةَ ثمَّ نَزَعَ الحلقَةَ الثَّانيةَ وَسقطتْ معَهَا ثَنيَّةٌ أخرى لأبَى عُبيدةُ فَدعا النَّبىُّ له بالخَير ، وعَاشَ بعدَها ، لهذَا كانَ النَّبىُّ يحبُّ أبَا عبيدة ، وكَانَ يقولُ لأصحابه :

« إن لكُل أمَّة أميناً ، وإنَّ أمينَ هَذه الأمَّة أبُوعُبيدة بنَ الجَراح » .

* * *

ويَأتى وَفدُ نجْران منْ اليَمن مُسلمينَ ، ويلتَقُوا بالنَّبى ويمكثُوا فى المدينة أياماً ، وعندَ عَودتهم سألوا النَّبىَ أنْ يُرسلَ معهمُ منْ يُعلمهم القُرانَ وأمُورَ الدِّين ، فقَالَ : لهمَ النَّبىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

ـ لأبعثنَّ مَعكُم رَجُلاً أميناً ، حَقُّ أمين ، حَقُّ أمين ، حَقُّ أمين !

فتمنَّى كُلُّ صحابى أن يكونَ هُوَ المقصُودَ ، لكنَّ النَّبىَ كانَ يَعنى أبُوعُبيدةَ بنَ الجراح وَفى خلافة أبى بكر الصدِّيقَ ، وبَعد القَضاء علَى فتْنَة الْمرتدِّينَ ومَانعى الزَكَاة ، يُفكِّر الصدِّيقُ فى فَتح بلادَ الشَّام ، فَنَادَى فى

النَّاسِ بالجهَاد ، فهرَعَ إليه المُسلمونَ وأعدَّ جَيشاً هَائلاً قَسَّمهُ إلى أربعة جُيوش كلُّ جَيْشٍ يقومُ بمهمة عَسكرية ، فكانَ يَزيدُ بن أبى سُفيانَ قائدَ الجَيْشِ الأولَ وَيتجهُ إلى شَرق الأرْدُن ، وَعلَى الجَيش الثانى شُرحْبيل بن حَسنةَ وتوَّجهَ إلى البَلقْاء ، وكانَ عمرُو بنَ العَاص قَائدَ الجَيْش الثَّالث وتَوجَّهَ إلى فلسطينَ ، وكان أبُوعُبيدةَ قائدَ الجَيْش الرَّابع ووجهته حمص وأسندَ الصِّديقُ القيادَة العَامَة لهَذه الجُيوش إلى أبى عُبيدة بنَ الجرَّاح ، وأوصَاهُم أبُوبكرٍ بالصَّبْر والعَدْلِ والوَفاء بالعَهْد ، وعَدَم قَتلُ الأطفالِ أو الشُّيوخِ أو النِّساء .

ودَخلَ أبوعُبيدةَ الشَّامَ بجيْشه ، وَفتحَ القُرى حتى وَصلَ إلى حمص ، فحَاصَرها فترةً حتى استسلمَ أهلُهَا فدخلها مُنتصراً . وفَزعتْ الرُّومُ عندمَا عَلمتْ بسقوط حمص ، وأعدَّ قائدُها جَيْشاً هائلاً قوامُهُ مائتين وأربَعينَ ألفَ مُقَاتل ، وأدركَ أبُوعُبيدةَ خُطورةَ المَوقفَ فأرسلَ إلى أبى بكرٍ الصدِّيق يخبرهُ بأمرِ الرُّومِ . ثُمَّ أرْسَلَ إلى قُواد الجُيوش الثلاثة ليطلعهم علَى الموقف عنْدهُ وعنْدما وَصَل النَّبأ إلى أبى بكر وكَانَ جالساً بينَ أصحابه ، فَكَّر قليلاً وشَاورَ الصَّحابةَ ، ثُمَّ قَالَ : واللهُ لأُشغلنَّ النَّصارىَ عنْ وسَاوسِ الشَّيطَان بخالدِ ابنِ الوليد .

كانَ خالدُ بن الوليد بالعراق يخوضُ مَعَاركَ مَجيدة لفَتح البلاد ونَشْرَ الإسلام وأرسَلَ أبُوبكر إلى خالد يأمُرهُ بأن يَصحبَ معَهُ نصفَ جَيْشه وأنْ يتقَدَّمَ إلى الشَّامِ لمعاونة أبى عبيدةٍ ، وأنْ يبقَى نصفَ جَيشه الآخرِ بالعراق

وأنَ يُولّي عليه المُثنَّى بن حَارثة وأن يَتولىَ خالدٌ قيادةَ الجُيوش في قتَال الرُّوم بالشَّام .

وكَتب خالدٌ إلى أبي عُبيدةَ قائلاً : « سلامُ اللّه عليْكَ ، أمَّا بعدُ ، فقَدْ أتَاني كتابُ خليفةُ رسول اللّه يأمرني بالسَّير إلى الشَّام والقيام على جُندها والتولّي لأمرها والله ما طَلبتُ ذلكَ قطُّ ، ولا أردتُه إذ ولّيْتُهُ ، فأنتَ عَلى حَالكَ الذي كنُتَ عليه ، لا نعْصيكَ ولا نُخَالفكَ . . ولا نَقطعَ دونَكَ أمراً . فأنْتَ سَيدُ المُسلمينَ لا نُنكرُ فَضلكَ ولا نَستغني عن رأيكَ .

* * *

وتَولَّى خَالدُ بنُ الوليد قيَادةَ جُيوش المُسلمينَ ، والتَقَى الجَيْشَان في وَادي اليَرمُوك ، ووَقفَ أبُو عُبيدةَ يَعظُ المُسلمينَ في مَيْدان القتَال قَبلَ خَوض المعركَة ، مُرَدَّداً :

ـ عبَادَ اللّه ، انْصرُوا اللّهَ يَنصُركُم ويثَبّتْ أقَدامكُم ، يَا مَعْشَرَ المُسلمينَ ، اصْبرُوا فإنَّ الصَّبرُ مَنجاةٌ منَ الكُفْر ، ومَرْضَاةٌ للرَّب ، ومَدحضَةٌ للعَار ، ولاَتَبْرَحُوا مَصافكمْ ولا تَخطُوا إليهم . ولاَ تَبْدأوهم بالقتَال ، وَشَرعُوا الرِّماح ، والزَمُوا الصَّمْتَ إلاَّ بذكر اللّه ـ عَزَّ وجَل ـ في أنْفسكُم حَتى يَتمَّ أمْركُم إنْ شَاءَ اللّه .

وكَانتْ همَّةُ المُسلمينَ عاليةً ، وَدَارتْ المعَركَةُ ، الرُّومُ أعْدَادهم هائلةً ، خَمسةُ أضعَاف المُسلمينَ ، وأسْلحَتهم أكثَر لكنَّ المُسلمينَ أكثرُ ثَباتاً وشَجاعةً .

فى هذه الأثْنَاء وَصَلتْ رَسَالةٌ من المدينَة إلى أبْى عُبيدة بنَ الجراَح ، كَانتْ الرِّسالةُ منْ أَمير المؤمنينَ عُمَر ابنَ الخَطَاب ، فَقَدْ لَقى أَبوبكر الصِّديقَ ربَّهُ ، وَتَولَّى عُمَر خلافَةَ المُسلمينَ ، قَرأ أبُوعُبيدةَ الرِّسالَةَ ، وَفَيهَا أنَّ عُمَر يُولِّى أبَا عُبيدةَ إمارةَ جَيْش المُسْلمينَ وَيَعْزِلُ خَالدُ بنُ الوليد وَطَوى أبُوعُبيدةُ الرسِّالةَ وأخْفَاهَا حتَى تَنْتَهى المعَركةُ .

وَانتهتْ المعَركةُ - مَعركةُ اليَرمْوك - بالنَّصر للمُسلمينَ ، وتَقدَّمَ أبُو عُبيدةَ بعد أنْ استَقرَّ الجَيشُ ، ودَخَل علَى خَالد بن الوَليد خَيمَته ، وسَلَّم رسالَة أميرُ المؤمنينَ عُمر ، فَقَالَ خالدُ لأبى عُبيدةَ بَعدْ أنْ قَرَأَ الرِّسَالَةَ :

- يَرَحُمكَ اللهُ يا أبَا عُبيدَةَ ، مَا مَنعَكَ أنْ تُخبرَنى حينْ جَاءَكَ الكتَاب ؟

فَقَالَ أبُوعُبيدة : إنّى كَرهتُ أنْ أكَسرَ عَليْكَ حَرْبَكَ ، ومَا سُلطَانُ الدُّنيا نُريدُ .

وتَسلَّم أبُو عُبيدةَ قَيادةَ الجُيوش بَعْدَ ذَلكَ ، وجَعَلَ خَالدُ بنُ الوَليد مسُاعداً لهُ ، ومُستشاراً عَسكرياً له فى حُروبه . وتَوجّهَ بَعْدَ ذلكَ إلى دَمشْقَ فحَاصرَهَا عدةَ أشهُر ، ثمَّ عقَدَ مَع أهلهِا صُلحاً ، وفَتَحَهَا دُونَ إراقة دمَاء ، وأرْسَلَ إلى عُمرَ يُخبرهُ بالنَّصر .

وَيَنتَقلُ أبُوعُبيدةَ بينَ مَدائن الشَّام فَاتحاً ومُنْتَصراً ، وانْتَشَرَ المُسلمونَ فى تلكَ البلاد ، وأصبَحَ الأذانُ يَتَردَّدُ فى سَماء المُدن بالشَّام ليُعلنَ للنَّاسِ صَوْتَ الإسلام ، وأصبَحتْ الصَّلاةُ تُقَامُ فى كُلِّ واد .

* * *

وَيَعيشُ أبو عُبيدةَ بنَ الجَرَّاحِ هُناكَ زَاهداً وَرِعاً ، وَيَزُورهُ أميرُ المؤْمنين عُمَرَ بنَ الخَطَّاب بالشَّام ، فَيصحَبهُ أبُو عُبَيدةَ إلى دَارِه ، ويَجِدُ عُمر أمامَهُ داراً بَسيطَةً خَالِيَةً مِنَ الأثَاث الجَميلِ والفِراشِ الوَثِير .

وَيَتَلَفَّتُ عُمَرَ فى أرْجَاء الدَّارِ ، فتَقَعُ عيناهُ عَلى سَيفٍ وترْسٍ وأدوَاتِ حَرْبٍ فيتَعجبُ ويَسْأَلُ صديقَهُ :

ـ يا أبا عُبيدةَ ، ألاَ اتخَذتَ لنَفْسكَ مثْلَمَا يَضعُ النَّاسُ ؟

فَيَرُدُّ أبُو عُبَيدةَ قَائلاً فى إيمانٍ رَاسخٍ وَطِيبِ نَفْسٍ :

ـ يَا أمِيرَ المؤمنينَ ، هَذَا يُبلِّغُنى المَقِيلَ .

فيَقُولُ عُمَر وَهو فى غَمْرةِ الدَّهشَةِ :

ـ غَيَّرتنَا الدُّنيا كُلنَّا ، غَيْرَكَ يَا أبَا عُبيدةَ !

وَيَنْصرفُ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ويَعودُ إلى المَدينة وَقَدْ اطمأنَّ عَلى حَالِ الوُلاة وحَالِ الرَّعية .

* * *

وتَمضى الأيامُ ، وَذَاتَ عام يُنتَشرُ الطَّاعونُ ببلَدة عَمواس بالشَّام ، وبهَا جَيشُ المُسلمينَ بقيادة أبى عُبيدة ابنَ الجَراح ، وكَانَ الطَّاعونُ خَطيراً ماتَ بسببه ألوفُ المُسلمينَ وخَشى عُمرُ بنَ الخَطَّاب أنْ يَتعرَّضَ أبُو عُبيدةَ للطَّاعونِ وَهوَ قَائدٌ مُسلمٌ ذو شَأن عظيم ، ورَأى أنْ يَدْعوَ أبَا عُبيدةَ للمجئ إلىَ المَدينَة لئلا يُصيبهُ الطَّاعونُ فأرسَلَ إليه خطاباً يقولُ فيه :

قَدْ عُرِضَتْ حَاجةٌ عندَنا ، ولا غنى فيها عنكَ ، فإذَا أتَاكَ كتَابى هَذَا فإنى أعْزمُ عَليكَ ، إنْ أتَاكَ كتَابى ليْلاً ألاَّ تُصْبحَ حَتى تَركبَ إلىَّ ، وإنْ أتَاكَ نهاراً لاتُمْس حَتى تَركبَ إلىَّ » .

وَعَنْدماَ قَرأ أبُوعبيدةَ خطَابَ أميرُ المؤْمنينَ ، أدركَ مُرادَهُ وَفهَمَ غايتَهُ ، فَقَالَ في امتنانٍ : يَرحُم اللّهُ عُمَرَ ، إنّهُ يُريدُ أن يَستبقى مَنْ ليْسَ بباقٍ ! »

ثُمَّ كَتبَ إلىَ عُمَر بنَ الخَطَّاب يقولُ :

« أمَا بعدُ ، فَقدْ عزمتُ حاجتكَ التى عُرِضَتْ لكَ فَخَلِّنى منْ عَزْمتكَ يا أميرُ المؤمنين ، فانِّى فى جُنْدٍ منْ أجَنادِ المُسلمينَ لا أرْغبُ بنفسى عنهُم » .

وَعنْدمَا قَرأ عُمرُ رسالةَ أبى عُبيدةَ تحدَّرتْ من عينيه دَمعَةٌ وَقَد أحَسَّ بدنُوِّ أجْلِ صَاحبه ، ويَشتَّدُ المرَضُ بأبى عُبيدة فيَوصى قُوادَهُ بأنَ يُدفَنُ حيْثَ يَموتُ وذَاتَ يَوْمٍ فى سَنة ثَمان عشْرَةَ من الهجَرة ، وكَانَ بالأغْوار بالأردُن تَصعَد روحُه الطَّاهرةُ إلى خَالقها ، ويُصلِّى المُسلمونَ عليه ويُدفنَ هُناكَ .

وكانَ أميرُ المؤمنينَ بالمدْينة عنْدمَا أتاهُ رَجلٌ يَنعى إليه وَفاة أبى عُبيدة بنَ الجَرَّاحِ ، فيحزَنَ عُمرُ بنَ الخَطَّاب حُزْناً شَديداً ، ويَبكى فراقَ أمين الأمَّة ويَدعُو له بالرَّحمَة ، ويذكرهُ بالخَير ، كانَ عُمَرُ يَجلسُ معَ نَفَرٍ من أصحَابه ذاتَ يومٍ فنَظَر إليهم ثمَّ قَالَ : تمنُّوا .

فأخَذ القَومُ يفكرونَ فيمَا يتمَنّونَ ، فقَالَ رجُلٌ : أتَمنَّى لو أنَّ هَذه الدارَ مملوءةٌ ذَهباً أنْفقُهُ فى سَبيل اللّه .

وقالَ رجُلٌ آخَرَ : أتمنَّى لَو أنَّها مملوءةٌ لؤلؤاً وجَوهراً أُنفقهُ في سَبيلِ اللّهِ كُلّه، وأتَصدّقُ به .

ثمَّ قالَ عُمر : تَمنَّوا ، وكأنهُ يَرجُو مَا هُو أكثَرُ .

فقالوا : ما تَدرىْ ما نَقُولُ يا أميرَ المؤمنينَ ؟

فقالَ عُمرُ : ولكنِّى أتمنَّى لو أنَّ ملءِ هذهِ الدَّارِ رِجالاً مثلَ أبى عُبيدةَ بنَ الجَرَّاحِ .

فَقَدْ كَانَ عُمَرُ بنَ الخَطَّاب يَعرفُ قَدْرَ الرِّجالِ ، وكانَ يعرفُ جَيداً قَدْرَ أمينُ هذهِ الأمَّةِ ، أبُوعُبيدة بنَ الجَرَّاحِ . رَحمهُ اللّه .

((رضي اللهُ تعالى عَنهُ))

« طَلْحَةُ بنْ عُبَيدِ اللّه »

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

« من سرَّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض

وقد قضى نحبه ، فلينظر إلى

طلحة بن عُبيد الله »

كانَ طَلحةُ تاجراً واسعَ الثَّراء ، خَرجَ ذاتَ عامٍ بتجارتِه إلى الشَّامِ ، وفي سُوقِ بِصْرَى سَمِعَ راهباً يقولُ وهُوَ يُطِلُّ من صَوْمعتِه :

ـ سَلُوا أهْلَ هذا المَوْسِمَ ، أفيهم أحدٌ مِنْ أهْلِ الحَرمِ ؟

فَردَّ طلحةُ قائلاً : نَعَمْ أنَا !

فقَالَ الرَّاهبُ لهُ : هَلْ ظَهر أحمدُ بَعدُ ؟

قالَ طلحةُ : ومَنْ أحمدُ ؟

قالَ الراهبُ : ابنُ عَبدِ اللّه بنُ عبدِ المطّلب ، هذا هو شَهرهُ الذى يَخرجُ فيه ، وَهَو آخرُ الأنبياء ، ومُهَاجرهُ إلى أرضٍ ذاتُ نَخْلٍ وحَرَّةٌ وسبَاجٍ . . . فإيّاكَ أن تَسبقَ إليه أو يَفُوتك مَوكَبهُ ، فَإنهُ مَوكبُ الهُدَى والرَّحمة .

دُهشَ طلحةُ منْ مَوقف الرَّاهب العُجوزِ ، ورَاحَ يُفكِّرُ فى كَلامه . ثُمّ أنْهى تجارتَهُ سَريعاً وعَادَ إلى مكةَ .

وفى مكة سَمِعَ ضجيجاً بين القَوْمِ والنَّاسِ يتحدثونَ ، فسألهُم :

ـ هل حَدَثَ أمرٌ بمكةَ ؟

قالوا : نَعمْ ، مُحمدٌ الأمينُ قَد تنبأ ، ويَزعُم أنَّ الوَحى يأتيه ، وأنّه جاءَ برسالة إلى العَرب وإلى النَّاس ، وقَدْ تبعهُ ابن أبى قُحافةَ .

أخَذَ طلحةُ يُفكِّر فى كَلامِ القَومِ ويحَدِّثُ نَفْسَه قَائلاً : مُحَمدٌ وأبُوبكر ؟! والله لا يَجْتَمعُ الاثنان على ضَلالة أبداً ، فَلقَد بَلَغَ مَحُمدٌ الأربعينَ منْ عُمره ومَا جرَّبنا عليه كذباً قطُّ ، إنّه ما كان ليتركَ الكذبَ عَلىَ النَّاسِ ويكذبَ على اللّه .

وأسْرَعَ طَلحةُ إلى دَارِ أبى بكرٍ وسألهُ : أتَبِعْتَ هذا الرَّجلَ . . مُحمداً الأمينْ ؟

قال أبوبكر : نَعمْ . . إنه يَدعُو إلى الحقِّ .

فقصّ طلحةُ على أبى بكرٍ حكايةَ الراهبِ الذى لقيهُ فى بصرى .

فقال أبوبكر : انطلق بنا إلى رَسُول اللّه لتَقُصَّ عليه ما سَمعتَ .

وانَطلَقَ أبوبكر وطلحةُ بنُ عُبيد اللّه إلى النَّبى ، فأسْلَم طلحةُ ، وكَانَ مِنْ السَّابقِينَ الأولينَ إلى الإسلامِ .

* * *

اهتزت مكة جميعها بإسلام طلحة بن عبيد الله ، فهو تاجر ثري ، ذو جاه وحسب ، وفي إسلامه إغواء وفتنة لشبان مكة الذين يترددون بين الدخول في الإسلام أو البقاء على الشرك .

وحاولت قريش أن تعيد طلحة إلى صفوفها ، وأن تردّه إلى عبادة الأوثان ، لكنه رفض بإباء ، وأصرّ على موقفه الجديد من الإسلام ، بل إنه أعلن أنّ ماله وثروته جميعاً مرصودة للإنفاق على الدعوة الجديدة ، وأنه مع الدعاة إلى الإسلام بنفسه وماله ، يتحمّل ما يتحملون ، ويلقى ما يلقون .

ويصدق طلحة فيما قال ، وتمضي الأيام وهو ينفق من أمواله في سبيل الله ، حتى تعرضت ثروته الطائلة لهزات عنيفة فلم يعبأ بذلك ، وتعرض لضغوط وتعذيب من المشركين فلم يتراجع عن دينه ، بل سار في طريق الإيمان بقلب خالص ونفس مطمئنة .

كان طلحة بن عبيد الله يعيش راضياً سعيداً بإسلامه ، وانفاقه في سبيل الله حتى أصبح أحد الرجال الذين يعتز بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وواحداً من خيرة الدعاة إلى الإسلام ، فقد كان يحب ملازمة النبي ، يصغي إلى كلامه وينهل من علمه ، وعندما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين هاجر بعضهم إلى الحبشة حتى يأذن الله بالخير ، غير أن طلحة لم يهاجر مع إخوانه إلى الحبشة ، وآثر البقاء بجوار النبي يذود عنه ، ويتحمل في سبيل الله الإيذاء والعنت .

وأذَنَ النَّبيُ للمُسلمينَ بالهجْرة إلى المدينَة ، حيثُ فيها أنَصارٌ للدِّين وأخوةٌ للمُسلمينَ ، وطلَبَ النبي - صلى الله عليه وسلم - من طلْحةَ أنْ يكونَ مع أفواجِ المُهَاجرَينَ إلى المدَينَة يُنْفقُ عليهم مَا بَقى من ثَرْوتَه ومَاله ، ويُساعدهم فى مَشاق الرَّحيل والسَّفر .

وهَاجَر طَلحةُ بنُ عُبيد اللَّه إلى المَدينَة قبْلَ هجرة النَبى لهَا وانتَظَر مَعَ المسَلمينَ هنَاكَ وصُولَ النَّبى فى شَوق وحَنين .

وعَنَدَما هَاجَر النَبىُ إلى المدَينة استقبله المُسلمونَ بفَرحة غَامرة ، ومن يَومها وطَلحةُ لا يُريدُ البعادَ عَن رسول اللَه ، كأَنه يُعوِّضُ الأيامَ التى افتَقَدَ فيهَا النبىَ بين مكةَ والمدينة ، وأقْسمَ طلَحةُ ألا يتْركَ النَّبىَ ولا يَبْرحَ مجلسهُ إلا لأمرٍ يُكلفهُ به رسُولُ اللَّه .

❊ ❊ ❊

وَجَاءتْ غزَوةُ بدْر ، أولَى المعَارك بَيْن دُعاة الحقِّ ودُعاة الضَّلال ولمَ يَشْترِكْ طلحةُ فى هذه الغزوة ، فَقَدْ كَانَ وقَتَها خَارجَ المدينة فى مهمة ندبَهُ إليهَا رسولُ الله مع سَعيد بن زَيْد وعندَما أنجز المُهمةَ وعادا إلىَ المدينة ، كَانَ النبيُ والمُسلمونَ عائدينً منْ غَزوة بدرٍ ظافرينَ بالنَّصر .

وحَزن طلحةُ وسعيدُ على ضياع فرصة الجهاد منْهُما فى هَذه الغزوة ، وطيَبَ النَّبىُ خَاطرهُمَا وأخبَرهمَا أنَّ لهما أجرَ المقَاتلينَ فى هَذه الغَزوة ، وجَعلَ لهُمَا نصيْباً فى غنائمِ المعَركة .

وَجَاءتْ غزوةُ أحُد ، وهَبَّتَ قريشٌ للثأر لقتلاها ، وأعدَّتْ عُدَّتها لهزيمة المسلمينَ ، وجَهَّزَ النَّبيُ الجَيْشَ ، وحَذَّر الرُّماةَ الذينَ فوقَ الجَبَل منْ تَرْكَ أماكنهم ، ودارتْ المعركةُ عند جَبَل أحُد ، وقُتل كَثيرٌ منَ المُشركينَ ، وانسحبَ الباقونَ فَارِّينَ منْ أرضِ القتال ، فوضَعَ المسْلمونَ أسلحتَهم ونزَل الرُّماةُ منْ فوقِ الجَبلِ تاركينَ أمَاكنَهُم ليَجَمعُوا الغَنَائم التى خَلَّفَهَا جَيشُ المُشركينَ .

وفَجأةً عادَ جيشُ قُريش منَ ناحيةِ الجَبَلِ وحَاصَر جيش المُسْلمين ، ودارَ القتالُ منْ جَديد ، وامتلكَ المشْركونَ زمامَ المعركة وشَتَّتوا صفُوفَ المُسلمينَ ، وكانَ طلحةُ يتلفّتَ حولهُ بحْثاً عَن رَسُول اللَّه ، فوجَدَ النّبيَ يتْزلقْ وسيوفُ المشركين تُحاصرهُ ، فطاشَ صَوابُهُ وانطَلَقَ كالبَرق يَشُقُ صفوفَ المشَركينَ حتَى وصلَ إلى النَّبى ، وراُح يضربُ بسيفه يميْناً وشمالاً ، والرؤسُ تَهْوى والأجْسَامُ تتساقَطُ ، وأسَرعَ يَحملُ النّبىَ منْ الحُفْرة التى انزلقَتْ فيهَا قَدَمُهُ ، ويَذودُ عنْهُ بسْيفه بشجاعة لا مَثيلَ لها ، ويَسَاندُ النّبَى ليبتعدَ به عَن هَذا المكان ، وضَرباتُ المُشركينَ تُصيبهُ ، وسهامهم تَرْشَقهُ ودماؤه تَسيلُ وهُوَ يَجعْلُ من جَسده دِرْعاً يَحمى به النّبى ، وحتى جَعَل النَّبى فى مكان آمن .

وانْتَهتْ المعركةُ بهزيمة المُسْلمينَ ، ونَجا النُّبيُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غَدر المشْركينَ ، وقُتل عَددٌ كبيرٌ منَ المسُلمينَ وسَقَطَ طلحةُ علَى الأرْضِ وهُوَ لا يَقْوى علَى السَّير أو الوقُوف وكَانَ

أبُوبَكر الصِّديق وأبُوعبيدَة بن الجَرَّاح بِجَوارَ النَّبى ، فقَالَ لهُمَا النَّبى :
دُونكم أخاكُم .

وَنَظَر أبُوبكر وأبُوعُبيدة إلى المُقاتل الجَريحَ فإذا هو طَلحةُ صريعٌ ، وإذَا به بضْعٌ وسَبعونَ طعنَةً وَضَربةً ورَميةً ، وإذَا بأصبعه مقطوعةٌ فأصلَحوا منْ شأنه حتى أعادوه إلى دَاره وهُو يَئنُّ منْ أثر الجراحِ .

وكَانَ أبُوبَكر الصِّديق بَعْدَهَا إذا ذَكَرَ يوم أُحد يَقُول :

ـ ذلك كُلّهُ كانَ يومُ طَلحْة !

وذَلكَ لما أبْداهُ منْ تَضْحَية وإقْدامٍ فى سَبيل اللَّه .

وَيَومَ حُنَين ، كانتْ معركةٌ حاسمةٌ ، وكَانتْ صرخَةُ طَلحَةَ فى هَذة المعركة تَخْلعُ القُلوبَ وتبَعثُ الرُّعبَ فى نفُوس الأعداء المُشركينَ ، ممَّا جَعَلَ النَّبى ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ يقولُ عَنْ هَذه الصَّحبة المؤمَنة المُنْذرة :

ـ إنّها فى الجَيش خَيرٌ منْ مَائة رَجُل ! .

وَيَوْمَ حُنَين ، خَرَجَ إلى طَلحةَ منْ صُفُوف المشُركينَ عشْرونَ مبُارزاً منْ أقْوى الرِّجَال ، وأشدهم بَأسَاً ، فصرعَهُمَ جَميعاً ، وهُوَ يَقْذفُ الرُّعبَ فى قُلوبهم بصحبته المُزمجرة ، وتَرديده : اللهُ أكبر .

وَهَكَذا كانتْ أيامُ طَلحةَ فى عَهْد النَّبى زَاخرةً بالعَطاء والنِّداء ، وذَاتَ يوم قرأ رسُولُ اللّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحَابه قولُ الله تعَالى :

﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثمَّ نَظَرَ النَّبىُ إلى أصْحَابه وأشارَ إلى طَلحة بن عُبيد اللّه وقَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أن يَنْظُرَ إلى رجلٍ يَمَشْى علىَ الأرْضِ وقَدْ قَضَى نَحبهُ، فَلينْظُر إلى طَلَحةَ».

وَنَزَلتْ هذه الكَلمَات علىَ قَلب طَلحَةَ بَرْداً وسَلاماً، فَهُو يَسْيرُ حَاملاً رُوحَهُ عَلى كَفِّه، يَخوضُ الغَزَوات مع رَسُول اللَّه وَهُو يَطلبُ منَ الله الشَّهادة فى سَبيله، ولكنْ لكُلِّ أجَلٍ كتاب، فلَمْ يَزَلْ فى العُمر بقَيةٌ ويَنْتَقلُ رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - إلى رحَاب رَبِّه، وَيَصبحُ أبُوبكر الصِّديق خليفَةً للمُسلمينَ، ويمْضى طَلحةُ بنُ عبيد الله فى قَافلة الإيمانَ معَ أصحاب النَّبى، يَغْزُو معهم إذَا غَزَوا، وَيَشْتَرِكُ مَعَ المجَاهدينَ فى قتَال المُرتَدينَ، ويُعطَى المشُورةَ والنَّصحيةَ لأمير المُؤمنينَ، وفقَ اجتهاده فيمَا تَعلَّمَهُ منَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وَفى خلاَفة عُمرَ بنَ الخَطَّاب كانَ طَلحةُ عابداً مُخْلصاً، ونَاصحاً أمْيناً حتَى أنَّ عُمَرَ رَضى اللّه عنهُ اختَارهُ واحداً من الستة الذين يُختَارُ منْهُم أميرُ المُؤمَنينَ منْ بَعْده وكَذلكَ كانَ طلحةُ عَوناً لعُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، وَإنْ اختَلَفَ مَعَهُ فى بعَضَ المواقف، لا حُباً فى الخلاف والعصْيان،

بل تمسكاً بقواعد الإسلام وأصول الدين ، هذا مع إحترامه وطاعته لأمير المؤمنين .

وكان طلحة ينفق من ماله على أقاربه وذوى رحمه ، وعلى المساكين والفقراء ، وكان باراً بأهله ، وكان يعولهم جميعاً ، ويخدم ضعيفهم ويزوج بناتهم ، ويقضى دين غارمهم وكانوا لذلك يحبونه كثيراً ، وكان طلحة يحبهم .

وبرغم ذلك كانت ثروة طلحة كبيرة ، دخلت عليه زوجته « سعدى » ذات يوم فرأته ضائقاً مهموماً ، فسألته :

ـ ما شأنك ؟

فقال : المال الذى عندى قد كثر حتى أهمنى وأكربنى .

فقالت له : وما عليك .. أقسمه ، وأنفق منه فى سبيل الله .

فقام طلحة ودعا الفقراء وأخذ يقسم المال عليهم حتى لم يبق منه درهم وكانت لطلحة أرض جيدة ، فرأى أن يبيعها وباعها بثمن كبير ، وجلس أمام المال مفكراً ، ففاضت عيناه من الدمع وهو يردد فى نفسه : « إن رجلاً تبيت هذه الأموال فى بيته لا يدرى ما يطرق من أمر ، لمغرور بالله .. ثم عزم على إنفاقها فى سبيل الله .

ودعا طلحة بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه ، ومضى فى شوارع المدينة وبيوتها يوزعها على المحتاجين حتى أسحر وما عنده منها درهم .

* * *

كَانَتْ الفتنةُ قدَ اندلعتْ بينَ المُسلمَينَ كالنَّار فى الهَشيم بعدَ مَقْتل عُثمان بنَ عفَّانَ ، وإثْرَ تَولّى علىّ بن أبى طَالب الخلافَة ومبَايَعة كَثير من المُسلمينَ لهُ فلم يَكَدْ الإمامُ علىَّ يَتَقَبلُ بيعةً المُسلمينَ بالمدينَة حتَى استأذنهَ طلحةُ والزُّبيرُ بنَ العَوامَ فى الخُروج إلى مكةَ للعُمرة ، ولَحقاَ بعَائشةَ زَوجُ رسَول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحَرَضَاها على المُطالبة بدَم عثْمَان .

وفى مكةَ تجمّعَ عددٌ كبيرٌ من المُسلمينَ ، وَخَرجُوا من مكةَ بثلاثَة ألف مُقاتل إلى البَصرة مُطالبين بأخذ الثَّأر لعثْمان .

وَلَمْ يكَنْ أمَامَ علىٌّ بن أبى طالب سوى إخماد هَذه الفتنة ومُواجَهَة هَذَا الخَطرَ ، فَخَرجَ عليهم علىٌّ وسَارَ إليهم فى عَشْرة آلافَ رَجُل لقَمع هَذَا التَّمرُد وإعادة الهدوء إلى بلاد الإسلام . والتَقى الجيْشَان ، وكَانَ هَذا التَّحرك السَّريع رجالٌ أرادوا الفتنةَ بينَ المُسلمينَ لغَاية فى نفُوسهم .

وَعنْدَما رأى علىٌّ بن أبى طَالب السيدةَ عائشَةَ فى هَوْدَجَها علَى الجَملَ فى مُقدّمَة جَيْش التَّمرُد حزَنَ وبكىَ ، أيُقَاتل جَيْشاً مُسلماً تَقودهُ أمُّ المؤمنين ؟!

وَلَمَحَ علىٌّ وَسَطَ الجيْش طَلحَةَ والزُّبيرَ ، فنَادى عليهمَا ، فخَرجَا إليه منْ بيْنِ الجُمُوع على فَرسَين ، فقَالَ علىٌّ معاتباً :

ـ يا طلحةُ ، أجئـتَ بعُرسِ رسولِ الله تقَاتِلُ بهَا ، وجَبأتَ عُرسَكَ في البَيت ؟!

ثمَّ التفَتَ إلى الزُّبير بن العوَّامِ وصَاحَ :

ـ يا زُبيرُ . نَشَدتُكَ اللّهَ ، أتذكُر يومَ مرَّ بكَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحنُ بمكان كذاَ فقَالَ لكَ : يَا زُبيرُ ألا تُحبُ عَلياً ؟

فقلْتَ : ألاَ أحبُ ابنَ خالي ، وابنُ عَميَّ ، ومَنْ هُو علىَ ديني؟!

فقَالَ لكَ يا زُبيرُ ، أمَا والله لتُقَاتِلنه ، وأنتَ لهُ ظَالمٌ !!

فتَذكَر الزُّبيرُ كلامَ النَبي وقَالَ : نَعَمْ الآن أذكُر كلامَ النَّبي وكنْتُ قَدْ نَسيْتَهُ وَاللّه لا أقَاتِلكَ .

وأرَادَ طلحةُ والزُّبيرُ الرُّجوعَ عن الحَرْب بَعدْ أن تَبيَّنَ لهُمَا خُطورةَ موقفهِمُا ، وبَينمَا هُمَا يَسيران بفَرسَيهمَا أمَامَ الجَيش ، إذأبصَرا عَمّار بنَ ياسر يُحارِبُ فى صَفِّ عليٍّ ، فتَذَكرا قَولَ النّبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذاتَ يومٍ لعمَّار : « تَقتُلكَ الفئةُ الباغيةُ » .

فَفَزَع وَأدْركَ أنَ عمَّار بنَ ياسر إذا قُتلَ فى هَذه المعَركة ، ستكونُ الفئةُ التى قَتَلتهُ باغيةً ، ويكونُ طلحةُ إذاً باغياً ، هُنَالكَ انَسَحبَ طلحةُ بنُ عُبيد الله والزُّبيرُ منْ سَاحة القتَال فَتعَقَبهمَا رجالٌ وَقُتلَ الزُّبير غَدْراً وهوَ قائمٌ يُصلِّى لله ، ورَمى مَروانُ بنُ الحكم « الزُّبيرَ » بسَهم فَخرَ صَريعاً وانْدحر جَيْشُ أمَّ المؤمنينَ عائشةَ ، وقُتل كَثيرٌ منَ المُسلمينَ من

كلاَ الجَيْشين ، وانتهتْ هذه الواقعة « واقعةُ الجَمَلِ » بانسحاب جَيْشِ عائشةَ ، فغَادرت البَصَرةَ ، إلى مَكَةَ ، وأوَصَى عليٌّ بِهَا خَيْراً ، وأحَاطَها بِكُلِ حماية ورِعاية وتكَريم .

وصلَّى عليٌّ بن أبى طالب على شُهداء المعركَة منْ كلاَ الجَيْشين ثمَّ وقفَ حَزيناً أمامَ قَبْرىَ طلحةَ والزُّبيرْ ، يتذَكرُ قَولَ رسول اللَّه « طَلحةُ والزُّبيرُ جاراىَ فِىَ الجَنَّةِ » ، ورَاحَ يدَعُو اللَّهَ أن تَجْمَعَهُ بِهِم وبِرَسولِ الله فى الجَنَّة » .

« رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُم أجْمَعِينَ »

« الزبير بن العوام »

رضي الله عنه

« لكل نبي حواري ، وحواري الزبير »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَمَ يَدْعو عَشيرتَه الأقربِينَ إلى الإسْلامِ عَنْدمَا نَزَلَ عَلَيه الوحْي ﴿وأنذرْ عشيرتكَ الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَتوجَّهَ إلى دارِ عَبدِ الْمطَلب فوجَد بها نفَراً من أهْله فقَال لهمَ :

ـ يَا فَاطمةَ بنتَ مُحمد ، يَا صَفيةَ بنتَ عبدَ الْمطلب ، يَا بَنى عبدَ المَطلب ، إنِّى لا أمْلكُ لكُمْ منَ اللَه شَيْئاً ، سَلونى مَا شئْتُم منْ مَالى . وَجَلَسَ يَدعوُهمْ إلَى الإسْلامِ ، وبَعدمَا فرَغَ النَبيُ منْ كَلامه قالتْ صَفيةُ بنتَ عبدَ المطَلب : أشْهدُ أن لاإلهَ إلا اللهَ وأنَّ مُحمداً رَسولُ الله وآمنَت صفيةُ عمَّةُ النَّبيَ ـ صَلىَ اللَّهُ عَلَيه وسلم ـ .

وعَادتْ صَفيةُ إلىَ بيتها فوَجدتْ ابْنَها الزُّبيرُ جَالساً مَعَ أبى بكرٍ الصَّديقَ ، وأبُوبكر يُحدثُهُ عَنْ دَعْوة النَّبى ويَدْعوهُ إلى الإيمان . فأخْبَرتْهم صَفيةُ أنَها أسْلمتْ ، وَدَعتْ ابنَهَا إلى الإسلامِ وكَانَ فَتىً الخَامسة عَشرةَمنْ عُمره ، واستَجابَ الزُّبيرُ لدعوة أمِّه وقَامَ مَعَ أبى بكرٍ الصِّديقَ إلى النَّبى ليُعلنَ بينَ يديْه إسلامَهُ .

وعَلِمَ عمُّ الزُّبير بإسْلامَه فَغَضب غَضَباً شَديداً ، وَأرادَ أنْ يُرْجِعَ الزَبيرَ إلى دينَ قَوْمه ، فحَاورَهُ وجَادلهُ ولَكنّ الفَتى لَمْ يَستَجبْ ، فراحَ يُهدِّدُهُ ويَتوعَدهُ ، فَلَمْ يَعبأ الزُبيرُ به ، وتحدَّاهُ قَائلاً : لنْ أرجَعَ عَنْ دينِ مُحمّد ، وافَعَلْ مَا تَشَاءُ .

فُجنَّ جُنونُ عَمّه وأخَذَهُ إلى بيته ، وفى إحدَى حُجُرات البَيت قَيّدَ الرجُلُ الفَتَى بالحبَال ولَفهُ فى حَصر وَعَلقهُ على الحَائط . ورَاحَ يُوقد تحتَهُ نـاراً ثـمّ تَركَهُ وانْصَرفَ ، وهوَ يَظُنُّ أن الفَتَى سيردُّهُ العذابُ عن دينْ مُحمّدَ .

واندَلَعَتْ النَّارُ وتَصاعَدَ الدُّخانُ ليملأ الحجرةَ وَيَكادُ الزُبيرُ يختَنقُ وتَسيلُ دُمُوعهُ وتُحرقُ أنفُه .

وعندمَا عَادَ عمُّ الزُبير إليه آخرَ النَّهارَ وجَدَه فى حالة إعْيَاء شَديد ، فَقَدْ اسودَّ لَونهُ ، واحْمرَتْ عيَنَاهُ وهدَّه الجُوعُ وبَلَغَ به العَطَشُ مداهُ .

وَطَلبَ عمُّ الزُّبير منْه أنْ يَعودَ إلىَ دينَ قومه حتَى يَرحمُه فردَّ عَليه الفَتَى قَائلاً :

ـ لَنْ أعودَ إلى الكُفْر أبداً بَعَد إذْ أنَقَذَنى اللّهُ منْهُ .

وَظَلَّ عَمُّ الزُبيـرَ يُعـذّبُ الفَـتَى ، فَلمْ يَزْدهُ العَـذَابُ إلا إصْـراراً وصُمُوداً على ديْن محُمَّد ، فَلمَّا يَئسَ الرَّجُـلُ مـنْ عَـودْة الزُّبير لديْن الآباء ، تَركَهُ يَأساً وجَزَعاً .

وأصْبَحَ الزُّبيرُ بنُ العَوَّام قريباً منَ النَبى وَصَاحبُه أبى بكر ينْهلُ منَ علْمِ النَّبى ويَجدُ عَطْفاً منْ أبى بكرِ الصَّديقِ ، حَتَى شَجَّعهُ ذَلكَ علَى أَنْ يَطْلبَ من أبى بكر الزَواجَ منْ ابنته أسماءَ ولمْ يجَدْ أبُوبَكر خَيراً لابنته منْ هَذَا الفَتى المؤمنُ العَنيدُ، فَقَدْ كانَتْ إرادتُه قَويَّةً ، وكَانَ عَزْمهُ شَديداً وَحُبُّه للإسلام كَبْيراً ، وإنْ كانَ قَليلَ المْال ، فرَحَبَ به أبُوبَكر وزَوَّجَه أسماءَ ابنته ، تَلك الفَتَاةُ المؤمنةُ الشُّجاعةُ .

* * *

كانَ الزُّبير يُحبُّ زوجهُ أسماءَ حُبّاً جَماً ، وكَانتْ أسماءُ تُبادلُ زَوْجَها حُباً بحب وَعْطفاً بعطْف ، وفى بيت الزُّبير تعيشُ أسماءُ حياةً جَديدةً ، فهى تقومُ بخدمة زَوجها وبيتها بنفْسها ، تَعجنُ وتَخْبزُ وتكنسُ ، وتَستقى الماءَ منَ النَّبع وتَعلفُ فرَسَ زَوَجها ، أمورٌ كانَ الخَدمُ يَقُومونَ بها فى بيت أبيها ، حتىَ ضَعُفَ جسْمها ، وشَحُبَ لَونُها ، فلَمَّا رأى أبُوبكر ذلكَ أرسَلَ إليها جارية كَفَتْهَا الكَثيرَ منْ أعْمَال البَيْت .

وَذَاتَ يوم والزُبيرُ فى بَيْته يَتَنَاول طَعامُهُ مَعَ زَوْجه ويُفكرُ فى رسُول اللّه ، إذْ سَمعَ هَمْساً خَارجَ الدَّار بأنَّ مُحمَّداً قُتلَ فَهَبَّ مَذْعُوراً واستَلَّ سَيْفهُ وخَرَج إلى الطَريق عُرياناً لا يَستُر جَسدهُ إلا سروالاً ، ورَاحَ يُهرولُ بينَ الدّيَار بَحْثاً عن القَائل ، وليَتَأكدَ منْ هَذَا الكَلاَم .

وفى الطَّريق قَابَلهُ النَّبىُ ، ففَرحَ الزُّبيرُ وحَمدَ اللّهَ علَى أنْ النَّبىَ بخير ، فهدأ قَليلاً وتعجَّبَ النَّبىُ وهُوَ ينظرُ إلى الزُّبير ، وَسَأله :

ـ مالكَ يا زُبيرُ ؟

قالَ الزُبيرُ : سَمعتُ يا رسولَ اللّه أنّكَ قُتلتُ !

تبَسَّمَ النَّبىُ وهُوَ يَرىَ الزُّبيرُ ثائراً وسَألهُ : فمَا كَنتَ صَانعاً ؟

قَالَ الزُّبيرُ : أردتُ واللّه أن استعَرضَ أهلَ مكةَ وأجَرى دمَاءهُم كالأنهار لا أتركُ أحَداً منْهم إلا قتَلْتهُ حَتى أقْتلْهُم عَن آخرهم .

فَضَحَكَ رَسولُ الله ، ودَعا لَهُ ولسفيه بخير .

وتَمْضى الدَّعوةُ الجديدةُ فى مكَةَ بطيئَةً وئيدةً ، فالمُشركونَ يتَربَصونَ بالمُسلمينَ يُريدونَ القَضاءَ علَى الدِّين الجَديد ، وقُريشٌ تُذيقُ المسُلمينَ الضُّرَ والعَنَتَ حتَى لا ينتَشرَ الإسلامُ هنُالكَ شَكا كَثيرٌ منَ الصَّحَابة إلى النَّبى ما يلاقُونه من أهْليهم منْ ظُلْم وضُرٍّ .

فأشارَ عليهم النَّبىُ بالهجرة إلى الحبَشة ، فإنَّ فيهَا مَلكاً عَادلاً حتَى يَجعَلَ اللّهُ لهمُ فَرجاً ومَخْرجَاً .

وَهَاجَر الزُبيرُ إلى الحَبَشة مَعَ المهُاجرينَ ، ومكثَ معَ أصحاب النَّبى هناكَ مُدةً ثم عادَ إلى مكةَ شَوْقاً إلى النَّبى وإلى زَوجه ، ولكنه وجَدَ الأمرَ أكثرَ شدةً مما كان قبلَ سَفره ، فهَاجَر إلى الحبَشة مرةً ثانيةً يعبدُ ربَّه ويصلِّى للّه آمناً منْ كَيد المُشركينَ ، ويجلسُ الزُبيرُ ذاتَ يوم بَعْدَ أنَ فَرَغَ منْ صلاته يفكرُ فى رَسولِ اللَّه وقَدْ زَادَ حنينَه وشَوقه إلَيْه ، وراحَ يُحدِّثُ نفسهَ قَائلاً :

ـ « أأعيشُ هُنَا فى الحبَشة سَليماً آمناً ، ورسُولُ اللَّه فى مكَة يُلاقى الأذَى منْ سادَة قُرَيش ؟! . . إن هذا لهُوَ الجَبينُ بعينه ! .

وَرَكبَ الزُّبيرُ البَحرَ عَائداً إلى مكَة ليكونَ بجانب رسول اللَّه ، ينهلُ من فَيْضه ويذودُ عنهُ بأسَ المُشركينَ .

* * *

وَيُهَاجرُ النَّبىُ وأبُوبكَر إلى المدَيْنَة ، ويُهَاجرُ الزُّبيرُ إليهَا معَ المُهَاجرينَ ، وتَلْحقَ به أسمَاءَ .

وفى المَدينَة يكونُ مُجتَمَعاً جديداً للمُسلمينَ ، وتَسْرى شَائعةٌ هنَاكَ بأنَ اليَهُودَ سَحَروا المُسْلمينَ فلَنْ يُولَد لَهُمَ يَعدَ اليَوم ولَدٌ ، وصَدَّقَ بَعضُ النَّاس تلكَ الشَّائعة .

وذَاتَ يَوْم كانَ النَبىُ جَالساً مع أصَحْابَه عنْدمَا جاءتْهُ البُشرى بأن اللَّهُ رزقَ الزُّبيرَ وزَوْجُه أسَماءَ بمولود ففَرحَ النَّبىُ وفَرَحَ أصحابَهُ . ثُمَ جَاءتْ أسماءُ بعَدْ حين تَحملُ طفلَهَا إلى النَّبى بفرْحَة غامرة ، فَوضَعَه النَّبىُ فى حجْره مُستَبْشراً فَرحاً ، ودَعَا بتمرة فَمَضَغَهَا ثُمَّ حنَّكهُ بها ودَعَا لهُ بالبَركَة وسمَّاهُ عبدُ اللَّه ، فَكانَ عبدُ اللَّه بنَ الزُبير أولَ مَولود للمُسلمينَ فى المَدينَة .

وفى غَزوة بَدْر يَلتَقى المسْلمونَ وقَريشٌ فى قتَال عنيف ، وكانَ الزُّبيرُ بنُ العَوَّام يومَهَا مُبارزاً بارعاً ، لقَى الزُّبيرُ فى ميدَانَ القتَال رَجُلاً

مُشْركاً مُشْهُوراً بقَسوته وشدّته ويُدعى عُبيدةُ بنَ سَعد بنَ العَاص ، وكَانَ هذَا الرَّجلُ مُدجَجَاً بالسِّلاحِ والدّروعِ منْ قمة رأسه إلى قَدميه ، ولا يَبدوُ منهُ سوى العينَين .

وَبارزَ الزُبيرُ هذاَ الرَّجُلَ الحَصينَ ولكنهُ عَجزَ عَنْ قتْله ، واختَارَ كيفَ يخترقُ هذه الدُّروعَ ؟!

واهتَدى الزُّبيرُ إلى حيلة ، دَارَ الزُّبيرُ حَولَ هذا الرُّجل الحَصين وتَحيَّنَ الفُرصةَ ليُباغتهُ ، وكَان مَعَ الزُّبير عَنْزَةٌ ، وَهى رُمْحٌ قصيرٌ ، وكَانَ قَد أتَى بها منْ الحَبشَة عنْدمَا كان مُهاجراً إليْهَا ، وعَلىَ حين غرة طَعنَ الزُّبيرُ الرَّجلَ الحصَينَ عُبيدةَ بن سَعيد فى عينيه بالعَنَزة ، فاخترقتْ عينُه ووَصَلتْ إلى مُؤخرَة رأسه ، وَصَرخَ الرَّجلُ صَرخَةً مُوجعةً ، ووقعَ عَلى الأرض فاقدَ الوَعى ، فانقضَّ عليه الزبيُر وأمَسكَ بالعنَزة ليجعلها من عينه ، ولَم تَخرْج إلا بعدَ أن وَقفَ الزُّبيرُ على بَطنَ الرَّجلِ وجَذَبَها بشدَّة ، فكَانَتْ مخضبةً بدماء هذا المُشرك العَنيد .

وانتهتْ المعركةُ بفوز المُسلمينَ وفرار المشركينَ ، وسَمعَ النَّبىُ بقصَة العَنَزة التى قاتَلَ بها الزُّبيرُ ، فسرَّ بَها وطَلبهَا من الزُّبير ، فأعطَاها الزُّبيرَ للنَّبى وكانت تذكاراً عَزيزاً لمعركة باسلة . وظَلَّ هذا الرُّمحُ الصّغيرُ ببيتِ النَّبى حتَى ماتَ رسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم . فتوارثها من

بعده عمر بنَ الخَطَّاب ثمَّ عُثْمَان ثمّ عليُّ بن أبى طالبِ ثمَّ عَبْدُ اللهِ بنَ الزُّبير .

وَفى غزوة أحد ينهزمُ المُسلمونَ بسبب مخالفة الرُّماة أمرَ النَّبىُ ، وانقلبَ جيشُ قُريشٍ راجعاً إلى مكةَ بَعَد فوزه وينتدبُ النَبىُ الزُّبيرَ بن العَوَّامِ وأبا بكر الصِّديق لتعقب جيشَ قريش ومطاردته بعد انتهاء المعركة حتى لا يُفكروا فى الرُّجوع إلى المدينة واستئناف القتَال وقاد أبُوبكر والزُّبير سبعينَ رجالاً منَ المُسلمينَ فى مُطاردة المَشركينَ لكى يوهموهم بأنَّ الرسولَ قادمٌ ليشنَّ حرباً عليهم ، فأسرعتْ قريشُ فى سَيْرها إلى مكةَ .

* * *

كانَ الزُّبيرُ يُحبُ الجلوسَ إلى رسول اللَّه ، وذاتَ يوم أحبَ رسولُ الله أنْ ينامَ وكَانَ الزبيرُ بجانبه ، وغَلبَ النُّعاسُ عينْى النَبى ، وكَانَ الذُّبابُ يومَها كثيراً ، فراحَ الزُّبيرُ يَذبُّ عن وجه النَّبى ويدفعْ عنه الذّبابَ حتى استيقظَ رسولُ اللَّه ، ورأى الزُّبيرَ بجَانبه ، فقَالَ لَهْ :

ـ يا أبا عبدَ الله ، لمَ تَزَل ؟!

فقَال الزُّبيرُ : لَمْ أزل بأبى أنتَ وأمُّى .

فَرحَ النَبىُ وقالَ : هذا جبريلُ يُقرؤكَ السَّلامَ ويقولُ لكَ أنَا معكَ يومَ القيامة حَتى أذُبَ عَنْ وجهكَ شَررَ جَهنَّم .

وسُرَّ الزُّبيرُ بهذا الكلامِ سُروراً عظيماً ، ثمَّ بَشَرهُ النَّبىُ بالجنَة .

فطارَ فَرحاً وانْطَلقَ إلى زوجه أسماءَ بنت أبى بكرٍ ينقلُ إليها هذه البُشرى ، وَهى تُبَاركُه وتُهنئهُ .

وَتَمْضى الأيامُ ، والإسلامُ ينتَشُر فى البَلاد ، والمُسلمونَ تَقْوَى أواصُر الحُبِّ بينهم ، وذاتَ يوم ذَهَبَ النَّبىُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إلى بَنى غَنَم وكَان الزُّبيرُ معهُ ، فَلمّا رآهُم علىُّ بن أبى طالب ـ وكان هُناكَ ـ تهلَّل وَجْهه فَرحاً بلقاء النَّبى ، وأخَذَ يُحيى النَّبىَ ويُرحبُ به ضَاحكاً مُستبْشراً ، والنّبىُ يَردُّ عليه التَّحيةَ باسماً أيضاً ، ورَأىَ الزُّبيرَ ذلكَ فتحركتْ فى نفسه الغَيرة نحو علىٍّ بن أبى طالبٍ ، وَقَال للنَّبى :

ـ لا يَدَعُ ابن أبى طالب زَهْوهُ !

فَنَظَرَ النَّبىُ إلى الزُّبيرِ مُعاتباً وقال : أتحبُّ علياً يا زُبيرُ ؟

فقَالَ الزُبيرُ : والله إنى لأحبهُ .

فقَالَ النّبىُ : إنه ليس به زَهْوٌ ، ولتقاتلنّهُ وأنتَ لهُ ظَالمٌ .

وهُنَا جَعَل الزُّبيرُ منْ كَلمة النّبى صلى اللّه عليه وسلم ، ودَهشَ ثم راحَ يسألُ نفسه فى ذُهُول :

ـ إنَّ النَّبى لا ينطقُ عنْ الهَوَى ، أحقاً سيأتى يومٌ وأقاتلُ فيه علياً ويكونُ هَو مُحقاً وأكونُ له ظَالماً ؟! . . كيفَ ونحنُ إخوةٌ فى الإسلامِ ولا أحملُ له فى قلبى إلا المَودَّةَ والحُبَّ .

وَعَادَ الزُّبيرُ إلى دَاره قلقاً أرقاً حزيناً ، يُفكِّرُ فى كلامِ رسولِ اللهِ له ويُناجى رَبَهُ أن يتغمّدهُ بوافرِ رحمته .

* * *

كانَ الزُّبيرُ بنَ العوامِ بطلاً شُجاعاً لا يَهابُ المَوتَ ، ولا يَخَافُ الأعداءَ ، خَرجَ مَعَ جيشِ المُسلمينَ لقتالَ الرُّوم فى مَوقعة اليَرموك ، واصطحبَ معهُ ابنَه عبدَ اللَّهِ حَتى يُعوِّدَه خَوضَ المعَارك ويُعلمَهُ فنُون الحَربِ .

وكانَ جيشُ الرُّومِ فى هذه المعَركة هَائلاً والمُسْلمونُ يُحاولونَ اختراقَ الصُّفوف ، وزَعزعةَ جُنودِ الرُّومِ وتفرقت مجموعةٌ من الفُرسانِ المسُلمينَ وقالوا للزُّبير :

يا زُبيرُ ، ألا تهجم ، فنَهجَم مَعَكَ .

فقَالَ الزُّبيرُ : نعم ، هَيّا بنَا .

وانطلقَ الزُّبيرُ كالشّهاب يَحملُ ابنَّه خَلفهُ عَلىَ فَرسه ، ومَعهُ جَماعةٌ منَ الفُرسان ، وعَنْدما واجَهوا صُفوفَ الرّوم ورأوا الجيشَ الهائلَ العَدد يقفُ صَامداً كالجبل ، أحجموا ، وامتلأتْ قلوبُهم رُعباً وفَزعاً . وتعَجَّبَ الزُّبيرُ من إحجامِ زُملائه الفُرسان وتخلفهم عنه فتركَهُم ومَضى وحَدهُ يخترقُ صُفوفَ الرومِ مُصوبّاً رُمحَه ، وشاهراً

سَيْفهُ حتَى قتَل منهم عدداً كبيراً ثمَ عادَ إلى مكانه مُسرعاً وَرَأتْهُ جَمَاعةٌ أخرى من الفُرسان المُسلمينَ ، فَتَشجّعوا وقَالوا لَه :

يا زُبيرُ ، اهْجم مَرةً أخُرى ، ونَحن نَهْجم مَعَكَ .

فَرَدَّ عَليْهمْ قَائلاً : إنكُم لا تَثْبُتونَ .

فقالوا بحماس : سَنثبتُ إنْ شَاءَ اللهُ .

وانْطَلَق الزُّبَيرُ بنَ العَوَّام وَخَلْفُه ابنُه عَبَد اللّه عَلَى فَرَسه ، ومن حولَه الفُرسَان الشُجْعَان ، حَتى إذا وَاجَهَوا صُنُوفَ الرُوم ، أحَجَم أصْحَابَه وَخَافُوا فَتَركهم وَتَقَدَّم هُو بفَرَسه يَختَرق الصُفُوفَ ، وَيَزْلزلُ الجُنُودَ ، ويُقَاتلُ بسَيفه ورُمحه برُوح مَن يَطلب الشَهادة فى سَبيل اللّه ، ثُم عَاد إلى مكَانه وقَدْ أصَابته بَعَض الجراح .

وَتَمْضى الأيامُ وينتَقلُ رسولُ اللّه إلى الرَّفيق الأعْلى ، ثمّ يَلى الخلافَةَ أبُوبَكر الصدِّيَقَ ثم عُمَرَ بنَ الخطَّاب ، وَفى خلافة عُثمَان بنَ عَفَّان تحَدُث بَعَضَ الأمُور تكونُ بَدَايَةَ الفتْنَة بَينَ المُسْلمينَ .

كَانَ عَبْدُ اللَّه بنَ أبى السَّرح هُو عَامل عثمَان بَن عَفَّان عَلَى مصْرَ ، وَذَاتَ يَوم دَخَلَ عَلَية جَمَاعةً منْ النّاس فى أمْر مَنَ الأمُور فَرَدَهُم رَدّاً مُخْزياً وأمَر بضَربهم فخَرجَوا من عنْده نَاقمينً وَذَهَبَوا إلى المَدينَة بَعَد أن تجَمَّعَ مَعَهم وَفْدٌ من المصْريين ودخلوا عَلى عثمَان بن عفَان أمَير المُؤمنين وَحكوا له ما حدثَ منْ عَامله عبد اللّه بن أبى السَّرح ، وَطَلبُوا

عَزلهُ ، فأرْسَل عَثمَانُ إلىَ المصَريين وطَلب منَهم أن يَختَاروا أحَداً مَكانَه فأختَاروا مُحَمد بن أبى بكرٍ .

كَتَبَ عُثمانُ عَهدهُ ووَلىَ مُحَمد بن أبى بكرٍ عَلَى مصْر ، وأمَر الوفَد أن يعَودوا إلى مصْرَ فانصرفَ القومُ مَشكورينَ وفى الطريق لَمحَ الوَفدُ غُلاماً يَمرُّ عليهم وينطلقُ مُسرعاً ، وكَانوا قد سَاروا ثلاثَةَ أيام . فارتابَ القَومُ وأسْرَعوا خلفهُ وأدركوهُ . ثمَّ سألوه : مَنْ أنْتَ يَا فَتىَ ، ومَا هى وَجهتكَ ؟

وقَال الفَتَى : أنا غُلامُ أميرُ المؤمنينَ ، وَجَّهنى إلى عامله فى مصَر

فَقَالوا له مُشيرين إلى محمدٍ بن أبى بكرٍ هذا عَامِلُ مِصْرَ الجديد .

فَقَال : ليسَ هذاَ أريدُ .

فقالوا : وبماذا أرسلكَ أميرُ المؤمنين ؟

قال : برسالةٍ .

فسألوه : أينَ هىَ ؟

فامتَنَع عن إخرَاجها .

فأحاطوا به ، وفَتَّشُوهُ ، ووَجَدوا الرِّسَالةَ .

وعَنْدمَا قَرأهَا مُحمدٌ بن أبى بكر على أصحابه فَزَعَ ودَهَشَ ، كانَ

مكتوباً فيها أمرٌ منْ عثمَانَ إلى عَبد الله بن أبي السَّرحِ بأن يقْتُلَ مُحمَّداً بن أبي بَكرٍ وأصحابَهُ إذا رَجَعوا إليه .

وغَضَبَ محمَّدُ بن أبي بكر وأصحَابهَ ، وعادَوا إلى المدينة وَهُم مُصممونَ علىَ قَتْل عُثْمَان انتقَاماً ، والتَقى وفْدٌ منَ هَؤلاء بعُثْمَانَ بن عفان وقَصُّوا عليه حكايَة الرِّسَالة والغُلامُ فأقسَمَ عُثْمَانَ أنَّه مَا كتَبَ الرِّسَالَةَ ، ولاَ أمرَ بكتابتها ، ولا يَعْلمُ شَيئاً عنَها فسألوه : ولكنَّ الغُلامَ غُلامَكَ ، والكتَابَ كتَابُك ، والجَملَ الذىَ كانَ يركَبُه جَملُكَ .

فَقَالَ : الكتابُ كُتبَ بغيرِ أمْرى ، والغُلامُ ذَهبَ بغيرِ إذنى ، والجَملُ أخذَ بغيرِ علْمى .

فقَالُوا : ما أنت إلا صَادقٌ أو كَاذبٌ ، فإنْ كنتَ كَاذباً فقد استحققتَ الخَلْعَ لَمّا أمرتَ به منْ سَفْك دمائنا بغير حَقٍ ، وإن كنتَ صَادقاً فقَدْ استحققتَ أن تُخْلعَ لضَعْفكَ وغَفلتكَ وخبثِ بطَانتكَ .

وانصرفَ القَومُ وقَد أنَذروهُ بالحَرب إن لمْ يترك الخلافَةَ ثمَّ حَاصروا بيتَهُ وَعَلمَ الزُّبير بن العوام بالأمر ، فأرسلَ ابنه عبدَ الله ليكونَ مع أمير المؤمنين عُثمَانَ لكنَّ القومَ دَخلُوا على عُثمَان وقَتلوهُ ، فأسرعَ الزُّبيرُ عنْدما سَمعَ الخَبرَ ، ولَطمَ ابنهُ عَبدُ اللَّه وهُو يسألهُ فى غَضبٍ :

أينْ كُنتَ حينَ قُتلَ أميرُ المؤمنينَ ؟

فقالَ : كُنتُ معه يا أبى استمعُ إليه وهو يقرأ القرآن ، وقد أمَرَنى أنْ آمرَ أهلَ البيت بالانصراف . فلَمَّا خَرجْتُ من عنْده وكنتُ آخَر مَنْ معهُ ، سَمعتُ أنّه قُتلَ وكَانَتْ السّيدةُ عائشةُ ـ رضىَ اللَّهُ عنَها بمكةَ حينَ قُتلَ عُثْمَانُ ، وَعْندَما جَاءَها نبأ قَتْل عُثمَانَ واتَفَاق النَّاس على عَلىَّ بن أَبى طالب خليفةً للمُسلمينَ منْ بَعْده ، غَضَبتْ وقَالتْ : قُتل واللّه عُثمَان مَظْلوماً ، واللّه لأَطلبنَّ بدمه ثُمَّ نادتْ الزُّبير بن العَوام ، وطلحةَ ابنَ عُبيد اللّه ، ومُحمَّداً بن أبى بكرٍ واتفَقُوا على أن يَخرجُوا للمُطَالبة بالثأر لدمِ عُثْمَانَ .

وَخَرَجَتْ السيدةُ عائشةُ راكبةً عَلى جَملٍ ومنْ حَوْلها كثيرٌ من الصَّحابة مُتجهينَ إلى البَصرة واندلعتْ الفتنَةُ بينَ المُسلمينَ ، والتى بدأها عَبدُ اللَّه بن سَبأ اليَهوديّ الذى دخَلَ فى الإسلام لا رَغبةً فى الإسلامِ وإنَّما لبَذر بُذور الفْتنة بينَ المُسلمينَ . وكانَ قَدْ استَقَّر به المَقامُ فى مصْرَ ، وأخَذ يُؤلبُ النّاسَ على عُثْمَانَ بنَ عَفَّان ، حَتى انْتَهَتْ المؤامرةُ بمقْتلِ عُثمانَ ، وَقيامِ حَرْب بينَ المُسلمينَ وبعَضهِم .

وَتَمْضى الأيامُ سراعاً ، ويَخْرجُ الزُّبيرُ بنَ العَوَّامِ مَعَ جَيْش عَائشةَ المعُارضُ لخلافة الإمام علىٍّ والمطَالب بالثَّأر لدَمِ عُثْمَانَ . ويَلمحُ علىٌّ ابن أبى طالبٍ صَديقَهُ الزُّبير بن العَوَّامَ فى جَيشِ عائشةَ فيناديه :

ـ ويَحْكَ يا زُبيرُ ، مَا الذى أخْرَجَكَ ؟ . . أتْذكرُ يومَ لَقيتُ رسولَ الله ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فى « بَنى غَنَم» فضَحكَ النبىُ إلىَّ وَضَحكتُ إليه وأنْتَ مَعهُ يَومئذ ، فَقلتَ أنَت للنَّبى :

ـ يا رَسُولَ اللَّه ، ما يَدْعُ علىّ زَهْوهُ !

فردَّ عليكَ النَّبىُ قَائلاً :

ـ ليْسَ به زهوٌ ، أتُحبُّهُ يا زُبيرُ ؟

فقَلتُ : إنِّى واللَّه لأحبهُ .

فَقَالَ لكَ : إنّكَ واللَّه ستُقاتلُه وأنْتَ لَه ظَالمٌ .

فقالَ الزُّبيرُ : استَغفرُ اللهَ ، والله لو ذَكرتَها ما خَرجْتُ .

فَقَال علىٌّ : يا زيدُ ارجعْ .

فقَالَ الزُّبيرُ : كيفَ أرجعُ الآنَ ، وقَدْ التقتَ حَلَقتا البطانِ ؟ هَذَا والله العَارُ الذَى لا يُغْسلُ !

فقَالَ له علىٌّ محُذراً :

ـ يا زُبيرُ ارجع بالعَارِ قبلَ أن تحَملَ العَارَ والنَّارَ .

فانَصرفَ الزُّبيرُ بنَ العوَّام ، وَخَرجَ مِنْ بين جُموع النّاس ، وركَبَ دابتَهُ وانطلقَ حتى أتى وَادى السِّباعِ ، فرآهُ رجلٌ يدعَى « عَمرو بن

جُرموز » فَتَعقَبهُ فلما نزلَ الزُّبيرُ عنَ دَابته للصّلاة . غَدر به الرَّجلُ وقتلهُ وَسَلبَ سَيفهُ .

وأسرعَ القَاتلُ إلى علىٍّ بنَ أبىَ طَالب يظنُّ أنّه يحملُ إليه بُشرى مَقتل الزُّبيرُ .

وَصَاحَ علىٌّ غَاضباً عِنْدَماً عَلمَ أنَّ ببَاب الخَيمة قَاتلُ الزُّبيرُ بنَ العَوَّام يستأذن وقالَ لخَادمه :

ـ بَشِّر قَاتلَ ابن صَفيّة بالنَّار .

وعَنْدَما أدخلوا على الإمامِ علىّ سيفَ الزُّبير ، قبَّلهُ وَهوُ يَبكى كَمَداً وَحُزناً، وقالَ :

ـ سَيفٌ طَالما واللَّه جَلاَ به صَاحبه الكَربَ عن رسَول اللَّه !

وَصَلَّى الإمامُ علىٌّ بن أبى طَالب علَى صَديقه الزُّبيرُ بنَ العَوَّام مَع شُهداء المعْركة، ووَدعَ قَبْرهُ حزيناً باكياً .

« رَضِىَ اللهُ تَعَالى عَنْ الزُّبيرُ بنَ العَوَّام »

«عبد الرحمن بن عوف»

ـ رضي الله عنه ـ

«يا ابن عوف إنك من الأغنياء.. وإنك ستدخل الجنة حبواً فأقرض الله يطلق لك قدميك».

النبي ـ ﷺ ـ

كانَ عَبدُ الرَّحمنِ بن عَوْف تَاجراً ذكياً نَشيطاً، وكانَ يكسبُ أموالاً طائلةً من تجارته ببلادِ الشَّامِ. التَقى به أبوبكرٍ الصِّديق ذاتَ يومٍ وَأخبَرهُ عن مُحمدَ بن عبدالله وعن دَعوته الجَديدَة، فقالَ أبوبكر:

ظَهَر نَبيٌّ هذه الأمة يا صَاحبي، مُحَمدٌ الأمينُ، وهو يَدعُو إلى تَوحيد الله ونَبْذ عبادة الأصنامِ، ويدعو إلى مكَارمِ الأخلاقِ.

فَقَال عبدُ الرحمنَ: وهل اتبعهُ أحدٌ؟

فقالَ أبوبكر: نعم، إنني آمنتُ به واتبعتُه، وتَبعهُ أيضاً زَوْجهُ خَديجةُ وبعضُ عَشيرته، وهو يَدعو إلى الدِّين الجديدِ سراً، ويجتمعُ بأصحابه خُفيةً في شعابَ مكةَ.

فقال عبد الرحمنُ: والله إنَّ مُحمداً صَادقٌ أمينٌ، وهو فينا ذُو جَاهٍ ونَسبٍ ومالٍ، ولا أحْسبُ أنهُ يَبْتغي من دَعوته مَالاً أو جَاهاً.

قال أبو بكر : صَدقتَ يا ابن عَوف ، هَلاّ جلَستَ إليه لتسمعَ منهُ .

ردَّ عبد الرحمن قائلاً : لنذهبْ إليه معاً .

وانطلقَ أبو بكر الصدِّيق مع عبد الرَّحمن بن عَوْف إلى النبيِّ ، وبعد أن استَمعَ لكلامِ النبيِّ شَهدَ بأنهُ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ مُحمداً رسولُ اللّه . وكانَ اسمهُ «عبدُالكَعْبَة» فسمَّاهُ النبيُّ «عبدُ الرحمن» .

وتحمَّلَ عبدُ الرَّحمن بن عَوْف اضطهادَ قُريش له . وهَاجَر إلى الحَبشة مع بَعض أصْحاب النَبيِّ ثمَّ عَادَ إلى مكةَ ، وكانتْ قُريشٌ لا تزالُ تُذيقُ المُسلمينَ العَذابَ والعَنَتَ ، فهَاجَر مع نَفر من المُسلمينَ إلى الحَبَشة مرةً ثانيةً ، وعندما عادَ إلى مكةَ ، كان النَّبيُ قد أذنَ لأصحابه بالهجرة إلى المَدينَة ، فهاجَرَ عبدُ الرحمن إلى المدينة وهو لا يَملكُ من ماله درْهَماًولاديناراً ، فقد صُودرَت تجارتَهُ وأمواله جَميعَها . وفي المدينة آخى النبي ـ ﷺ ـ بين المُهاجرينَ وبينَ الأنْصار ، فآخى النَبيُّ بين عَبد الرحمن بن عَوْف وسَعد بن الرَّبيع ، واستضافَ سَعدُ أخاهُ عبدَ الرحمن في دَاره وقالَ لهُ :

ـ أخي ، أنا أكْثرُ أهلِ المدينَة مالاً ، فانظْر شَطْرَ مالي فخُذْه لك وعندي امرأتان ، فانظر أيتهُما أعْجبُ لكَ حتى أطلقَها لكَ وتتزوجها .

فقال عبدُ الرحمنِ لسعدٍ :

ـ بارَكَ اللهُ لكَ يا أخى فى أهْلِكَ ومَالِكَ ، دُلَّنى على السُّوقِ ، ألا يُوجدُ سوقٌ هنا .

قال سعدٌ : نعم ، سُوقُ بنى قَيْنُقاع .

فغَدا عبدُ الرحمنِ بن عَوْف إلى السُّوقِ وأتى بجُبن وسَمْن وطَعامٍ ، ثم غَدا فى اليومِ التالى ليَبيعَ ويَشْترى ، وتابعَ الغُدوَّ إلى السُّوقِ ، وبدأ يَربحُ من بَيْعه ، فهو فى التِّجارة ماهرٌ وذكىٌ .

وشُغلَ عبدُ الرحمنِ بن عَوْف قليلاً بتجارته حتَى أصبحَ لديه بعضُ المَال ، وأرادَ أن يبنىَ بيتاً ويَعفَّ نفسَهُ ، فبحثَ عن امرأة صالحة من نساء الأنصار ، وتزَّوجَ ورآهُ النَّبىُ ذاتَ يوم شاحباً بعد مُدة من السَّعى والعَملِ وإعداد مَنْزل لهُ ، وسألهُ النبىُ ـ ﷺ ـ : تَزَّوجتَ؟ .

قَال عبدُ الرحمن : نعم يا رسُولَ الله .

قال النبىُ : ومَنْ؟

قالَ : إمرأةٌ من الأنصار .

قالَ النبىُ : كم سُقْتَ؟

فقالَ عبدُ الرحمن : نَواةً من ذَهَب .

فضحكَ النبىُ وقالَ : " أوْلم ولو بشاة .

وراحَ عبدُ الرحمن يجمعُ إخوانَه المُهاجرينَ والأنصار على الوَليمة لتكونَ إعلاناً عن زَواجه . وكان سَعيداً بنجاحه السَّريعِ ، وبغناهُ بعدَ أن كانَ لا يملكُ قُوتَ يومه عندما قَدمَ

المَدينةَ، وقد صُودرتْ أموالُه في مكةَ قَبلَ الهجرة.

وقالَ لبَعضِ أصحَابه يوماً، بَعدَ أنْ أصْبَحَ لَديه أهْلاً وَمالاً وَداراً فَسيحةً:

ـ لَقد رَأيتَنى لَوْ رَفَعتُ حَجراً لَوجدتُ تَحتهُ فضةً وَذَهباً!

فَضَحكَ أصحابُهُ قائلينَ:

ـ باركَ الله لكَ فى أهْلكَ وَمَالكَ، أنتَ ذو حَظٍّ عَظيمٍ فى التِّجارة.

ضَرَبَ عبد الرحمن بن عَوْف المَثَلَ الأعلىَ والقُدوةَ الحَسَنةَ لإخوانه المُهاجرينَ فى الكفاح والعَمل والاجتهاد. فبدلاً من أنْ يَعيشَ عالةً على إخوانه من الأنصار، ويكتفى ويَقْنَعُ بالكفاف، راحَ يَسلُكُ طريقَ الحَياة الكريمَة بسمُوِّ نفس وعُلوِّ همة، فهو الذى سَمعَ رسولَ اللَّه يقول: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليَد السُّفلى»

فوعَى هذه الكلمات، هو وأصحابُه وراحُوا يَضربونَ فى الأرضِ يَبتغونَ منْ فَضْلِ اللَّه.

وكَانَ رسولُ اللَّه يَحُثُّ المسلمينَ عَلىَ العَملِ والسَّعي فى طَلبِ الرِّزق، فقَالَ:

ـ لأنْ يَحتَطبَ أحدٌ علَى ظَهْرِه خَيرٌ منْ أنْ يَسألَ أحداً فيُعطيه أو يَمنَعهُ.

وقال أيضاً: « ما أكَلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أنْ يأكلَ من عَملِ يده ، وإنَ نبيَّ اللّه داودَ كَانَ يَأكُلُ منْ عَمل يده» .

نَجَحَ عبدُ الرحمن بن عوف في تجارَته ، وفي غَزوة بَدْر أنفقَ منْ ماله في سبيل اللّه لتجهيز الجَيْش ، وَحارَبَ مَعَ المُسلمينَ ، وفي غزوة أُحَد كان يُقاتلُ المُشركينَ فقالَ مَنْ يَطْلُبَ الشَّهادةَ في سبيل اللّه ، وأصيْبَ يَوْمَها بعشرينَ جُرْحٍ كَانتْ آثارُها باقيةً في جسْمه ، وتَركت عرجاً في إحدى ساقيه .

وحَضَر عبدُ الرحمن الغَزَوات والمعَارِكَ كلَّها مَع رسول اللّه ، وكَانَ يُنفقُ من ماله في كُلِ غَزوة في تَجهيز جَيْش المُسلمينَ . وفي المَدينة صَارَ عبدُ الرحمن ابن عَوْف من الأغنياء ، وذاعَ صيْتهُ بينَ التُّجارِ النَّاجحينَ . وقال له النبي ـ ﷺ ـ ذاتَ يَوْمٍ ناصحاً ومُحذِّراً :

ـ« يا ابنَ عَوْف ، إنكَ من الأغْنياء ، وإنكَ سَتَدخلُ الجنةَ حَبْواً فأقرِض اللّهَ ، يُطْلقَ لكَ قَدَميكَ» .

ومن ساعتها وعبدُ الرحمن بن عَوْف يُكثِرُ من الإنفاق في سَبيل اللّه ، ويَتنافسُ هو وعثمانُ بن عفَّان في تَجْهيز الجُيوش ، واللّهُ تَعالىَ يُضَاعفُ لهُ الرِّبحَ ويبارِكُ لَهُ في الرِّزق . كَانَ يُقرِضُ اللّهَ قَرضاً حَسَناً ، ورَبُّهُ يُضاعفهُ له أضعافاً كَثيرةً ، فمايزيدهُ ذلكَ إلا حَمداً وشكْراً .

وبرغمِ ذلكَ كان عبدُ الرَّحمن بن عَوْف يَخشى أن يكونَ هذا الثَّراءُ العَريضُ نقمةً عليه، لا نعمةً. وكَانَ يُردِّدُ:

«بُسطَ لنَا من الدُّنيا ما بُسطَ، وأعطيناً منها ما أعطِينا، وإني لأخشى أن نكُونَ قد عُجِّلتْ لنا حَسَناتنا، أو نكونَ ممن يُقالُ لهم يومُ القيامة: ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

كَانَ عندهُ يوماً ثَمانيَةَ آلاف درهَم، فأمسَكْ أربعةً منها لنفسه وعياله، وقدَّمَ أربعةَ آلاف لله ولرسوله، ففرحَ النبيُّ وقالَ لهُ:

ـ «بارَكَ اللّهُ لكَ فيماَ أمْسكتَ وفيماَ أعطيتَ».

ونزلتْ آيةٌ كريمةٌ تُبشرُ المْؤمنينَ الذين يُنفقونَ في سَبيلِ اللّه، تقُولُ الآيةُ:

ـ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

[البقرة: ٢٦٢].

أحبَ رسولُ اللّهَ ـ ﷺ ـ عبدَ الرحمن بن عَوْف حُباً جَماًّ، وكَرَّمهُ تَكريماً عَظيماً يومَ عَمَّمهُ بيده الشَّريفة، وسَدَلَ العمامةَ على كَتفيه وَهوَ يُوجِّههُ إلى «دَوْمة الجَنْدَل»، وَأذنَ لهُ أنْ يَتَزوجَ إبنَةَ ملكهم «الأصبغ بن ثَعلَبةَ الكَلْبي»، ففتحَ اللّهُ على عبدِالرحمن، وتزوجَ من

تلكَ الفتاة الحَسِيبَة وتُدعى «تُماضِرُ» ، وعاشَ سَعيداً بهذا التَّكريم .

وانتقَلَ رسولُ اللّه إلى الرَّفيق الأعلَى ، وولى الخلافةَ أبُوبكر الصدِّيق ، فكانَ عبدُ الرَّحمن عَوْناً له فى مُحاربة المُرتدينَ وتَّجهيز جُيوش المُسلمينَ لقتال مُدْعيِّ النُّبوة « مُسيلمةَ الكذَاب» ، وأتمَّ اللهُ النَصر للمؤمنينَ .

وعندَما أرادَ أبوبكر الصدِّيق نَشْر الإسلام خَارجَ جَزيرة العَرب ، وأمر بتسيير الجُيوش الإسلامية إلى بلاد فَارسَ والرُّوم ، كانَ عبدُ الرحمن بن عَوْف يُجهِّزُ الجُيوش ويُنفقهُ فى سَبيل اللّه . وَحَقَّقَ المسلمونَ انتصارات عَزيزةً فى العراق والشَّام وفَتَحوا بلادَ فارس ودَخلوا إيوان كسْرىً بقيادة سَعد بن أبى وقاص ، وقادَ خالدُ بن الوليدَ جَيْشَ المُسلمينَ فى العرَاقَ والشَّامِ ثم انتقلتْ القيادةُ لأبى عُبيدةُ بن الجرَّاحِ .

ثم ماتَ أبُوبكر الصدِّيق ، وأصبحَ عُمر بن الخطاب أميراً للمُؤمنينَ ، ولم يَألُ عبدُ الرَّحمن بن عَوْف جَهداً فى النُصح والمشورَةَ والانفاق فى سَبيل الله . وبكى يوماً عبدُ الرَّحمن بن عوف ، وكانَ على طعامٍ مَعَ بَعْض أصحابه ، وَقَد تذَكَّرَ إخوانه ومالاَ قُوهُ من حرْمان وَشَظَف عَيْش فى سَبيل نَشْر الإسلام بينما هُو يَنْعَمُ بخيراتِ وَطَيباتِ الحياة ، وقد بَسَطَ اللّهُ لهُ منْ الدُنيا ما بَسَطَ .

وتَعجَّبَ أصحابُه الجالسونَ معهُ عَلَى مائدة الطَّعامِ وسألوهُ بدهشة :

ـ ما يُبكيكَ يا أبا محمد؟ !

فقالَ : لَقَدْ ماتَ رسولُ اللّهِ ﷺ ـ وماَ شَبعَ هو وأهلُ بيته مِنْ خُبْزِ الشَّعيرِ ، مَا أرانا أخِّرْنَا لما هو خَيرٌ لنا ! . .

* * *

وتَمضى الأيامُ ، ويَنتشرُ الإسلامُ فى البلاد ، وتَنتشرُ قوافلُ التِّجارة لعبد الرحمن بن عَوْفٍ فى الأمصارِ ثم تأتى إلى المَدينة بخيراتِ هَذه البلاد من طعام وكسَاء .

وذَاتَ يوم وَصَلتْ المدينةُ قافلةٌ هَائلةٌ ، كانتَ تُثيرُ الغُبارَ والرِّمالَ ، وأحدثتْ ضَجَّةً عاليةً ، فأسرعَ النَّاسُ ليروا القَافلةَ . وكَانتْ سبعُمائةُ راحلة مُحملةً بالخَيرات قادمةً منْ بلاد الشَّامِ . وسَمعتْ السيدةُ عائشةُ جَلبةً فسألتْ مَنْ حَولَها : مَا هَذاالَّذى يَحْدثُ فى المدينة؟

فَقيلَ لها : إنها قافلةٌ جاءتْ مِنْ الشَّامِ لعبدِ الرحمنِ بن عَوْف تحملُ تجَارةً له .

فتساءلتْ السيدةُ عائشةُ فى دهشة :

ـ قافلةٌ للتجارة وتُحدثُ كل هذه الرَّجَّةَ؟ !

فقيلَ لَها : نَعم يَا أمَّ المُؤمنينَ ، إنهَا سبعُمائةُ راحلةٍ !

هُنالكَ تَذكَرتْ السيدةُ عائشةُ حديثاً سَمعتهُ من رسولِ اللّه . فَقَالتْ لِمَن حَولَها :

« إني سَمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ ، يقولُ :

ـ رأيتُ عبدَ الرحمنِ بن عَوْف يدخلُ الجنةَ حَبْواً ! »

وامتلأتْ شوارعُ المَدينةُ بالرِّحال ، ثُم وَقَفتْ أمامَ دارِ عبدَ الرحمن ابن عَوْف ، فأخبرهُ أحدُ أصحابه بمقُولة السيدة عائشةَ ، فسكتَ عبدُ الرحمن قليلاً وقد تذكَّر حديثَ النبي ﷺ له ذاتَ يوم بأنهُ يدخلُ الجنةَ حَبْواً ، وتَذكرَّ نصيحةَ النَّبي ﷺ له . . « يا ابنَ عَوْف ، أقرِضِ اللّهَ يُطلق لكَ قدميكَ » ، فأسرعَ إلى بيت السيدة عائشةَ وحيَّاها ثم قالَ لَها :

ـ لَقد ذَكَّرتني يا أمَ المُؤمنينَ بحديث لم أنْسهُ ، أما إني أشْهدُك أن هَذه القَافلَة بأحْمالها وأقتَابها وأطلاَسها في سَبيلِ اللّه عَزَّ وجل .

وعادَ يُوزعُ حُمولَةَ هَذه القَافلَةِ الهائلةِ عَلَى أهلِ المَدينة ومَن حَولْهاَ ، والنَّاسُ تَدعوُ لهُ بالخَير .

* * *

وَمَرضَ عبدُ الرَّحمن بن عَوْف ، وقَبْلَ مَوته أوصْىَ بخمسينَ ألفَ دينارٍ من ماله تُنفقُ في سبيلِ اللّه ، وأوصَى لكلِ مَن بَقيَ من أصحاب النَّبي ﷺ ممن شَهدوا بَدْراً بأربعمائة دينارٍ ، وكانوا يومئذ مائةَ صحابيٍ جَليلٍ .

ووُزِّعتْ هَذه الأموالُ عَلى الذينَ شَهدوا بَدْراً، وأخَذَ عثمانُ بن عفان نصيبهُ منْ هَذه الوَصية وهو يومئذ أميرَ المُؤمنينَ ـ وكانَ ثرياً ـ وكَانَ يُرددُ بغبطة : « إن مَالَ عَبدَ الرحمنِ حَلالٌ صَفْوٌ ، وإنَ الطُّعمةَ منهُ عافيةٌ وبركةٌ » .

وأوصى عبدُ الرحمن لكلِ إمرأة من أمهاتِ المُؤمنينَ بمبلغ كبير من ماله ، مما حدا بالسَّيدة عائشَة ـ رضيَ اللّه عنها ـ إلى الدُعاء لهُ قائلةً :

ـ سَقاهُ اللّهُ من السَلْسبيل .

ولقَى عبدُ الرحمنِ بن عَوْف ربهُ باكياً مُستغفراً، وصلَّى عليه عثمانُ بن عفانٍ وصحابةُ رسولِ اللّهِ ، وَدُفنَ بالبَقيعِ مع الشُّهداء والصَّالحينَ .

« رضيَ اللّهُ عن عبدُ الرحمنِ بن عَوْفٍ »

سعد بن أبي وقاص
رضي الله عنه

«ارم سعد .. فداك أبي وأمي، اللهم سدد رميته وأجب دعوته»

محمد ﷺ

كانَ سعدُ بن أبى وقّاص شاباً شُجاعاً قَوياً، وكانَ يَرْمى السِّهامَ ويَصنْعُ الدُّروعَ، والأقــواسَ ويُرتِّب فى مــتــجــرهُ بعناية أدوات الحربِ، وكانتْ تُسيطرُ عليه حَيرةٌ ودَهشةٌ. فى هذه السَّاعةِ مرَّ عليه أبوبكر الصدِّيق فحيَّاهُ وسألهُ: مالى أراكَ حائراً قلقاً؟

ردَّ سَعْد قَائلاً: رُؤيا رَأيتُها بالأمْس.

ـ خيراً.. ماذا رأيتَ فى نَوْمكَ؟

ـ رأيتُ أننَّى أسيرُ مُتَعثِّراً فى طريقٍ وَعْرٍ مُعْتمٍ، ثُمَّ ظهرَ القَمرُ فجأةً وصَحوتُ من نومى.

تبسَّم أبو بكر وقال: أبْشر يا صديقى، إنهارُؤيا خيرٌ.

ـ وَمَا تَأويلُها؟.

ـ إن تَأويلَها يا صَاحبى أنكَ تَسيرُ فى مَتاهات الجَاهلية وهى مُظلْمةٌ ومُلتويةٌ، فبينما أنتَ كذلكَ إذ طَلَعَ القَمرُ وأنارَ الكونَ بنورِ النُّبوةِ.. يا صديقى لعلَّكَ سَمعتَ عَن مُحمدٍ بن عبدِ اللّهِ..

ـ تَعنى الصَّادقَ الأمين؟

ـ نَعَم . . إنَهُ نَبىٌّ مُرسَلٌ من اللَه إلى النَّاسُ ليُؤمنوا باللّه وَحدهُ لا شَريكَ لهُ وإلى تَرْك عبادةَ الأصنامِ، ولقد آمنتُ به. إنهُ دينٌ جَديدٌ يدعو إلى العَدل والرَّحمة ومكَارم الأخلاق.

واستبشَرَ سعدٌ بهذه الرُؤياَ ومَضى مَع أبى بكرِ الصدِّيق إلى رَسولُ اللّه في دارِ الأرقـمِ بن أبى الأرقـمِ ليَستَمعَ إلـى كَلامِ النَّبـى، ويشْهدَ أن لاَإلـه إلا اللّـه وأنَ مُحمداً رَسولُ اللّـه. وكانَ عُـمرهُ آنئذ سَبعةُ عَشْر عاماً.

ووَصلَ خبرُ إسلامِ سَعْد إلى أُمّه فَثارتْ وَغَضبتْ وَأقسمتْ ألا تَذُوقُ الطَّعـامَ أو الشَّـرابَ حَتى يَرجعَ ابْنَهَـا عنْ دينه إلى دين آبائه وَأجْداده. وكانَ سعدُ بَرَّاً بوالديه رَحيماً بأمه، فَأخَذَ يُلاطفُها ويُحدثُها عَن دين مُحَمَد، وهى لا تَسمعُ لَهُ وتُشيحُ بوَجهها عنهُ.

وتَظَلُّ الأمُ عَلى مَوقفُها، وسَعدٌ حَزينٌ. يُريدُ إرضاءَها ولكنهُ لا يُفْلحُ، فتقولْ له: سأظلُّ هكَذا حتى أموتُ حُزناً، ويُعيِّرُكَ النَّاسْ بى، وَيقُولون هَذا قاتلُ أُمه!..

فصَاحَ سعدُ قائلاً وقَدْ نَفذَ صَبْرهُ: تَعلْمينَ يَا أُمى لَو كَانتْ لَك مائةَ نَفْسٍ، فَخَرجتْ نَفْساً ما تركتُ دينَ مُحمد، فكُلى إن شئْت أو لاَ تأكُلى، وتَركَها وانصَرَفَ.

وأسـرعَ سَـعـدُ بَن أبى وقـاصٍ إلى رسَـولِ اللّه وَقَصَّ عَلَيـهِ مَـا

حَدثَ، فَحزنَ النبى وَقَالَ لسعد : يا سَعْدُ كُن بَرّاً بأُمكَ واصْبر عَليهاَ .

وَنَزلَ القُرآنُ عَلى النَّبى ﴿وإن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٥] .

واشْتدَّ ايذاءُ المُشركينَ للمُسلمينَ، وهَاجرَ بعضهمُ إلى الحَبشة، لَكن سَعْداً ظَلَّ بجوار النَّبى ولم يُهاجر، وكانَ يُمارسُ عَملهُ تاجراً للسِّلاح وكانَ رامياً مَاهْراً. ثُم هَاجرَ سعدُ إلى المَدينَة قبلَ هجرة النَّبى لها، واشتَركَ فى غَزوة بَدْر، وقاتلَ المُشركينَ بسيفه وسهامه بشجاعة لا مثيبَ لها حتى أثْخنتهُ الجراحُ، ولما انتهتْ المعركةُ، خَلَع سَعْد ثيابهُ التى مَلأَتها الدِّماءُ وطواَها ليوم لقاء ربِّه .

* * *

وَفى غَزوة أُحُد، كَانَ سعدُ بجوار النَّبى يَرمى بسهامه المُشركينَ، والنبى يَرى سهامَ سَعْد تُصيبُ المُشركينَ فيقولَ لهُ : إرْمِ سَعدُ فأنتَ مُوَفقٌ، إرْمِ فداكَ أبى وأمى . .

وانتهتْ المعركةُ لصالح المُشركينَ ، وكانَ سَعدُ بن أبى وقاص فيها صَامداً مَع النبىَّ . وَظلَّ سَعدُ بن أبى وقاص على شَجاعته ومَحبْته لرسول اللّه، ورَأى النَّبىُ فيه إخلاصاً ووفاءاً فَدعا له :

ـ « اللهمَّ سَددّ رَميْتهُ ، وأجْب دعوتَهُ»

وَشَهدَ سَعدُ الغَزوات كلَّها مَع رَسول اللّه، ووقفَ مع الخَليفةُ

أبوبكر الصدِّيق يُحاربُ المرتدينَ ويخوضُ المعاركَ لتثبيتِ دَولةِ الإسلامِ.

وفي خلافة عُمر بن الخطاب كانتْ الفُتُوحات الإسلامية تمتدُ في العراقِ والشَّامِ لمجابهة الفُرْسِ والرُّومِ. وولَى إمبراطوريةَ الفُرْسِ قائدٌ شُجاعٌ يدُعى «يَزْدجرد» دَفَعتهُ الغَيرةُ على بلاده إلى صَدِّ هَجَمات المُسلمين، فَألهبَ مَشاعرَ قُوادِّه حَماساً للثَّأرِ من العَربِ وطَردهْم من بلاده، وغَزْو الحجاز أيضاً.

وبلَغَ أميرَ المُؤمنينَ عُمر بن الخطاب ذلكَ، ورأى خُطورةَ المَوقْف، فَشَاوَرَ أصحابهُ، فرأوا ضَرورةَ تَدعْيم جَيْش المُسلمينَ ومُواصلةَ الفَتْحِ، وكانَ لابدَّ من جَمعِ المُحاربينَ من كلِّ ناحيةٍ لتكوينِ جَيْشٍ قَويٍّ.

وتَجهزَ الجيشُ، وانطلقَ من المَدينة بقيادة سَعْد بن أبي وقاص، وكانوا ثلاثين ألفَ مُقاتلٍ من خيرة المُحاربينَ، وراحَ أميرُ المُؤمنينَ عُمر يُودِّعُ الجَيشَ ويُوصي قائدهُ قائلاً:

ـ ياسَعدُ، لا يغُرَّنكَ من الله أن قيلَ خَالُ رَسُول الله وَصَاحبُه، فإنَ رَسولَ الله لَيس بَينهُ وبين أحد نَسبٌ إلا بطاعته، عَليكَ بالصَّبرِ واليَقظة واكتُبْ إليَّ بجَميعِ أحوالكم، وتَوكَل عَلَى الله، وَمَا النَّصرُ إلا من عندِ الله..

وَصَلَ سَعدُ بالجيش إلى العراق، ثُم تَوَّجَهَ إلى القَادسية، لأنها بابُ فَارسٌ ويقفُ سَعدُ يَومَ مَعركَة القَادسية خَطيباً في جَيْش المُسلمينَ يَحثُّهم عَلَى الجهاد في سبيل اللّه ويَملأُ قُلوبهم عَزْماً وقُوةً، ثُمَّ صلَّى بالجيش صلاةَ الظُّهر وردّدَ:

« اللّهُ أكبرُ » أربعاً، وردَّدَ الجَيْش وراءَهُ، ثم هَتَفَ شاهراً سَيْفهُ:

ـ هَيَّا تَقَدَّمُوا عَلَى بَركة اللّه..

فَتَقدَّمَ جَيشُ المُسلمينَ يُثيرُ الغُبارَ ويحملُ الدَّمارَ، ويَتَساقَط جُنودُ الفُرْس تَحتَ ضَربات السيُّوف وأسنّةَ الرِّماح. ويُقْتلُ رُستم قَائدُ الفُرْس، ويَفر جُنودُ الفُرْس تاركينَ أرضَ المَعركَة، فيتعَقَّبهمُ فُرسانَ المُسلمينَ.

ويَنْتَصر المُسلمونَ في معركة القَادسية ويُصلُّونَ صلاةَ الفَتْح ثَمانَ ركعَات، ويُقيمُ سَعدُبن أبي وقَّاص بالقادسية شَهْرين يُريحُ فيها جَيْشهُ ويكتبُ إلى أميرُ المُؤمنينَ يُخبرهُ بالفَتْح.

ويتَلقى أميرُ المُؤمنينَ عُمر رسالةَ سَعْد ويتلوهاَ عَلى المُسلمينَ في المَدينَة، ثُم يكتبُ عُمَرَ إلى سَعْد بأن يَسيرَ من القَادسية إلى المَدائن، وأن يترُكَ النِّساءَ والأطفال في العَتيق ويَجعلْ مَعهم جُنوداً لحمايتهم.

ويتقدمَ سَعدُ بالجيش حتى تَمَّ فَتْح «بابل»، وأصبَحتْ معركةُ

«المدائن» قَريبةً ، فقد حَشَدَ لها الفُرسُ كُل طَاقتهم ، وتَحصَّنوا فى قَرْية «بَهُرسير» عَلى نَهر دجْلة . وحَاصرها سَعْدٌ بجيشه مُدّةً ، حتى تركُوها خَشْيةَ الجُوع . فَدَخلهاَ سَعْد بالجيش فى جَوْف اللَّيل ، ويَقفُ سَعْدُ بجَيشه عَلى شَاطئ النَّهر ، ويُرسلُ بَصَرهُ إلى الجهة الأُخرى من النَّهر فيرى المَدائنَ ، ويَرَى فى ضَوْء القَمر إيوانَ كسْرى بقُبته البَيضاء وجُدرانه العَالية وأشْجاره البَاسقة فيشعُرُ بفرحة .

ويَصيحُ أحدُ الجُنود بفرحة طاغية :

ــ اللّهُ أكبرُ . هَذَا إيوانُ كسْرى عَلى مَرْمى البَصر ، هذا ما وَعَدَ اللّهُ ورَسولُه ! ويُردِّد المُسلمونَ بفرحة : اللّهُ أكبرُ ! نَعم هَذَا مَا وَعَدَ اللّهُ ورسولُه .

* * *

وباتَ ستونَ ألفَ جُندى مُسْلم يُرددونَ فى جَوْف اللَّيل : اللّهُ أكبرُ اللّهُ أكبَر لا إله إلا اللّهُ ، اللّهُ أكبرُ ولله الحَمد .

وكانَ الفُرسُ فى المَدائن يَسمَعونَ تكبيرَ المُسلمينَ فَيزيدُهم رُعْباً وَهَلعاً .

وأرادَ سَعدُ بن أبى وقَّاص عُبورَ النَّهر إلى المَدائن ، وكَانَ الفُرسُ قد هَربُوا من المَدينَة وجَمعوا السُّفن إلى الشَّاطئ الآخر لنهر دجْلة . وأخَذَ سَعدُ يُفكرُ فى وسيلة آمنة لعبُور النَّهر ويَستَشيرُ قُوادَه . وراحَ يسألُ اللّه الهدايةَ .

وأخذته سِنَةٌ من النَّوم، فرأى رُؤْيا واضحةً، وهى أن خُيولَ المُسلمين تَقتحمُ الماءَ وتَعْبُرُ النَّهرَ وهُوَ فى فيضان عَظيم. فَعَزَمَ سَعدٌ عَلى عُبور النَّهر. وَفى الصَّباحِ جَمَعَ سَعدٌ المُسلمينَ وخَطَبَ فيهم، وحَثَّهُم عَلى الثَّباتِ والصَّبرِ، وأوصاهُمُ بإخلاصِ النِّيةِ للّه.

فقالَ الجنودُ:

ـ عَزَمَ اللّه لنا ولكَ عَلى الرُّشْد، فافعلْ.

فكْونَ سَعدُ كَتيبةً من سُتمائة فَارسٍ عَلى شكْل حَرْبة لعُبور النَّهر بقيادة عَاصم بن عَمرو، وسُميتْ بكتيبة الأهْوال، وعندماً رآهُمُ الفُرسَ ـ من الشَّاطئ الآخر ـ عائمينَ عَلى خُيولهم، أعدُّوا مثلُها، واقْتَحموا النَّهر، وقَامتْ مَعركةٌ نَهريةٌ بينَ المُسلمينَ والفُرس، فَصاحَ عاصمٌ:

أشرعُوا الرِّماحِ وتوخُّوا العُيون!

وأخَذَ جنودُ المُسلمينَ يَطعنونَ الفُرسَ حتى استَدَاروا وتَراجعُوا إلى شَاطئهم والمُسلمونَ خَلْفَهم. واسْتَمرَ القتالُ عَلى الشَّاطئ حَتى صَاحَ رَجلٌ فارسيٌّ:

ـ عَلامَ تَقتُلونَ أنْفُسكُمَ، فَواللّه مَا فى المَدائن أحدٌ!

عندئذ فرَّ جُنودُ الفُرس وتَركوا الشَّاطئ. وأذنَ سَعدُ ابن أبى وقَّاص إلَى بقيةِ الجَيش فِى اقْتحامِ النَّهرِ، وجَعَلَ لكُلِ فارسٍ قَرينَ حتى لا يَضلُ أحدٌ أو يغرقَ.

وَعَبرَ المُسلمونَ نَهرَ دجلةالذى فاضَ ماؤُه وَكَثُر فيه الطَّمىُ والزَّبدْ .

وعندما وَصلوا إلى الشَّاطئِ صاحَ سَعدٌ فى الجُنودِ : هَل سَقطَ منكمُ رَجُلٌ فى النَّهرِ؟

قالوا : لا

فَعَادَ يَسأَلُ : هَل وَقعَ منكمُ شَئٌ فى النَّهرِ؟

فقالوا : لا أيها القَائدُ .

وتَقَدمَ سَعدٌ بجَيشه فى طُرقات خَالية ، وَبينَ ديار خَاوية ، تَركَها أَصحابها خَوفاً وَهلَعاً . حَتى وَصلَ إلى إيوان كسرى ، ذَلكَ القَصرُ المُهيبُ ، وكانَ به تَمَاثيلُ نادرةٌ ، ولوحات فَاتنة ، وَجَواهرَ ثَمينة .

دَخَلَ سَعدُ الإيوانَ وَهوَ يُردِّدُ فى دَهشة :

ـ سُبحانَ اللّه . . كَمْ تَركوا من جَنَّات وَعُيون ، وَزُروع وَمَقام كَريم ، ونعمة كَانوا فيها فَاكيهنَ وكذلكَ وَأورثناها قَوماً آخرينَ .

واعتلى المُؤذنُ البناءَ وراحَ يُردِّدُ الأذانَ .

اللّهُ أكبرُ . . . اللّهُ أكبرُ ، حىَّ عَلى الصَّلاة ، حىَّ عَلى الفَلاحِ .

واتخذَهُ المُسلمونَ مُصلَّى .

وَكَتَبَ سَعدُ إلى أمير المُؤمنينَ عُمرَ يُخبرُهُ بفَتح المَدائنِ ، ويرسلُ إليه الغَنائمَ .

* * *

جَعَلَ أميرُ المُؤمنينَ سَعْداً والياً عَلَى الكُوفة، وَجَعَلَها مَركَزاً للفُتوحات نَاحيَة المَشْرق. وأقامَ سَعدُ بالكُوفة عدةَ سَنَوات بَنَى فيها مَسْجِداً، وكَانَ يَلي شُئونَ النَّاسِ، وشئُون الحَرْبِ، ويُصلي بالنَّاسِ.

وتَمضي الأيامُ، ويذهبَ نَفرٌ من أهلِ الكُوفة إلى أميرِ المُؤمنينَ بالمدينة يَشكُونَ إليه سَعْداً، فَقَالوا:

ـ يَا أميرَ المُؤمنينَ، إنهُ لا يُقْسمُ بالسَّوية، ولا يَعدْلُ في الرَّعية، ولاَ يَغزُو في السَّرية، ولاَ يُحسنُ الصَّلاةَ!!

وأرسلَ أميرُ المُؤمنينَ مُحمداً بن سَلَمةَ إلى الكُوفة للتحقيق في الشَّكوى، وكانَ يسألُ النَّاسُ سراً عَن سَعْدُ ابنَ أبي وقَّاص، فيقولونَ: والله لا نَعلمُ عنهُ إلا خَيْراً. إلا رجلٌ يُدعى «أُسامةُ بن قتَادة» اتَّهمَ سَعْداً.

وَعَلمَ سَعدُ بالأمر فَبكى بُكاءاً شَديداً، وقالَ: «اللَّهمَ إن كانَ هَذا الرَّجُلَ قالها كَذباً ورياءً فاعْمِ بَصَرهُ، وأكْثِر عيالهُ، وعَرِّضهُ لمُضلات الفتن».

وَخَرَجَ مُحمدٌ بن مسلَمةَ من الكُوفة بسعد بن أبي وقاص، وَمَعَهُما أولئكَ النَّفرِ الذينَ يتَّهمونَ سَعْداً، وعندما دَخَلوا عَلَى أميرِ المُؤمنينَ عُمَرَ بالمدينة، قَالَ:

ـ وَيْحَكَ يا سَعْدُ . . كَيفَ تُصَلى؟

قالَ سَعْدُ: أُطيلُ الرَّكعتينِ الأولينَ، وأخففُ الآخريينَ.

ردَ عُمرُ: هكَذا الظَنُ بكَ.

ثُم عَزَلَهُ عُمرَ عن ولاية الكُوفة، وبَقَى سَعْدُ مَعَ أميرالمُؤمنينَ عُمر وزيراً ومُستشاراً، وسكَنَ فى وادى العَقيق قُربَ المَدينة.

وفى خلافة عُثمان بن عُفَّان، ولِىَ سَعْدُ الكُوفَةَ مُدةً ثم تركَهَا واعْتَزَلَ فى بيته.

وتَمضى السنواتُ، ويُصابُ «أسامة بن قتادة» بالعَمى ـ الرَّجلُ الذى اتَّهم سَعْداً ـ وأصبَحَ لَديه عَشْر بَنات، وكانَ هَذا الشَّيخُ ـ برغمِ كبره ـ هاتكاً عربيداً، وكان يقفُ بالطُّرقات يُغازلُ النِّساءَ.

ويراهُ النَّاسُ فيتعجبون: وَيْحكَ يا رجُل. . عَجوزٌ وتُغازلُ النِّساءَ؟!

فيقولُ الشيخُ المتهتكُ ـ وقد تدلَّى حاجباهُ فوقَ عَينيه مَفتونٌ أصابتهُ دَعوةُ سَعْدُ بن أبى وقاص، الرَّجلُ المُباركُ.

ويَشتدُ المرضُ بسعد بعد أن بَلَغَ الثَمانينَ من عُمُره، ويَراهُ ابنهُ فَيبكى، فيقولُ سَعْدُ: ما يُبكيكَ يا بُنىَّ؟. . واللَّه إنْ اللَّهَ لا يُعَذبنى، وإنَّنى إن شاءَ اللَّهُ من أهْلِ الجنة، يابُنىَّ ائتونى بتلكَ الجُبَّة

الصُّوفَ التى قاتلتُ بها المُشركينَ يَومَ بَدْرٍ، فما طويتُها كُل هَذه السَّنواتِ إلا لهذا اليَومِ.

فيقومُ ولدهُ «مُصعبٌ» ويُحضرُ الجُبَّة التى جَفَّتْ فِيهَا دماءُ أبيه يومَ المعركة. فيقولُ سعدٌ: كفنونى فيها.

وعندمَا حضرتْ الوَفاةَ سعدٌ بن أبى وقاص، جاءَ رجالٌ من أهْلِ المَدينة وجَهزوهُ وكَفَّنوهُ فى جُبَّته الَّتى شَهَدَ فيهَا غَزوةَ بَدْرٍ، ثُمَّ حملُوهُ إلى مَسْجدِ الرَّسول وصلُّوا عليه.

ودُفِنَ بالبَقيعِ مع إخوانِهِ صَحَابةِ رَسولِ اللّه -ﷺ-.

« رضى اللّهُ عَن سَعْدٍ بن أبى وقاصٍ »

« سَعيدُ بنُ زَيدٍ »

رَضِيَ اللهُ عَنهُ

« نشدتموني بالله . أبو الأعور « سعيد بن زيد » في الجنة »

كَانَ « سَعيدُ بنُ زَيد » رَجُلاً هادئاً عَاقلاً رزيناً ، وكَانَ دائم التَّأمُل فِي الكَون ، كَثيرَ التفكيرِ فِي الأحوالِ البَشَر ، وَهَذا أكْسَبَه قَدَراً منَ الحكمَة .

نَشَأ « سَعيدُ بن زيْد » فِي بَيْت لَمْ يَدْخُله صَنَمٌ وَلا وَثَنٌ قَطُّ فَقَدْ كَان أبُوه « زَيْد بنُ عَمرو بن نُفَيلٍ » مُوحِّداً للَّه عَابداً له ، يَدينُ بدين إبراهيم ـ عَليه السَّلام ـ.

عَاشَ زَيْدُ بنُ عَمرو بنُ نُفَيل فِي الجَاهلية يكرَهُ الأصنَامَ وَالأوثَانَ ، ولا يَطيقُ خُرافَات وأوْهَام النَّاسَ عَنْهَا ، وَقَدْ اعْتَزلهَا قَبل أنْ يُبعثَ النَّبيُ ـ صَلى الله عليه وسَلَم ـ، وَلَمْ يُخْفي إيمانَهُ باللَّه وبُغْضه للأصَنام ، فَكانَ واضحاً صَريحاً يُرَددُ أمَام النَّاسِ فِي قُريش كلمَتَه الشهيرة :

ـ يَا مَعْشرَ قُريش ، مَا منْكم اليَوْمَ أحَدٌ غيْرى عَلَى ديْن إبْراهيمَ .

كَان « زَيْدُ بنُ عَمْرو » قَدْ قَرأ في الكُتبِ السَّابقة ، وَعَرفَ أنَّ نَبياً

سَيأتى مِنْ وَلَدِ إسْمَاعيل ، وَيدعُو إلى تَوْحيدِ اللَّه ، وإلى مَكارَمِ الأخْلاق .

وكَانَ يَنْتَظِرُ أنْ يُبْعَث هَذا النَّبى كى يُؤمنُ بدَعْوَته ، ويُؤازِرهُ حَتَى يُبَلغُ رِسَالة ربَه ، غَيْر أنَّ العُمرَ كَانَ يقْترِبُ مِنْ مَحَطَة الوُصُول ، وَالأجَلُ كَانَ وَشِيكاً لذَا قَالَ لصَاحِبه عَامِر :

ـ يَا صَاحِبى إنَّنى أنْتظِرَ نَبْيَاً مِنْ إسْمَاعيلَ يبْعَثُ فى هَذَا الزَّمَان ، وَلا أرَانى أدْرِكُهُ ، وَأنا أؤمنُ به وَأصُدِقُهُ ، وأشْهَدُ أنّه نَبىٌ ، فإنْ طَالَتْ بِكَ مدةٌ فرأيْتهُ فَأقْرئَهُ منِّى السَّلَام .

وَفعلاً ، مَاتَ الرّجلُ الذى كَان يُوَحِّد اللهَ ، وَقُرَيَشٌ تُعْيدُ بنَاءَ الكَعْبَة قَبْلَ بعْثَة النّبىَ صَلَّى اللهُ عَليه وَسَلم .

كَانَ هَذا الرَّجُلَ هُوَ وَالدَ سَعيدُ بنُ زَيْد ، الذى عَاشَ حَياةً هادئةَ وَادعةَ بعَيداً عَنْ ضَلال القَومِ ، وَأصْنَام قُرَيْش وخمْرِها ومُجُونها وكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الصَالِحُ رَحيْماً بالضُعَفاء وكَانت عَادَةُ وَأد البَنات خَشيةَ الفَقْر إحْدَى ظَوَاهِر الجَاهِليَة ، وكَانَ هَذا الرَجُلُ يَحَولُ دُوْنَ وأد البنَات اللائى لا ذَنْبَ لهُنَّ . فَإذا رَأى مَنْ يُرِيدُ قَتلُ ابْنَتَه مِنْ إملاقٍ وَفَقرٍ يُسرعُ إليه قَائلاً :

ـ أيُّها الرَّجُلُ ، لا تَقْتلُ الفَتَاةَ وأنَا أكْفيكَ مئُونَتَها .

وَيَأخُذهَا هَذَا الرَّجلُ الحَنُونُ وَيرعَاهَا حَتى تَنمو الفَتَاةُ وتَكبَر ، ثُمَّ

يُعرِضُهَا علَى أبيهَا قَائِلاً : « إنْ شئتَ دَفَعْتها إليْكَ ، إنْ شئتَ كَفيتُكَ مَئُونَتَهَا » وبهذا يَنقذُ نَفْساً بريئة غضةً من براثن الجهلِ والجاهلية .

في هَذَا البَيْت الذى امتلأ إيماناً بالله ورحمةً بالبشرِ وُلدَ سعيدُ بنُ زَيْد ، ونشأ مُتأثراً بأبيه ، لذا كَانَ سَعيد مُتفرداً عن غيره من فتيان قُريْش ، وكانت فطرتُه نقيةً ، ونفسُه ذكيةً وكَانَ عقْلُه راجحاً .

وعندمَا سَمعَ سَعيدُ بنُ زَيْد بدعوة النبى ، وأنّ محمداً يدعُو إلى عبادَة اللّه وحْدَه لا شَريكَ لَهُ ، أسْرعَ تلبية الدّعوة والإيمانَ بالله ربّاً وبمحمّد نبياً ورسُولاً وكَانَ المسْلمُون يؤمئذ قلة يجتمعونَ فى دار الأرْقم بن أبى الأرْقم خُفْيَةً ، يعبُدُونَ اللّهَ ويتلقَوْن توْجيهات النّبى ، ويَسْمَعُونَ القرآنَ .

وكَانَتَ أمُّ جميل بنتَ الخطّاب أختُ عُمرَ بن الخطّاب هى زوْجة سَعيد بن زَيْد ، وكَانت امرأة عاقلةً أيضاً ، اهتدتْ إلى الحقّ ، وأسْلمْت مع زوْجهَا للّه ربّ العَالمينَ ، وهكذا كَانَ سَعيدُ وزوْجهُ منَ السّابقين الأولينَ إلى الإسْلام .

* * *

جعَلَ سَعيدُ بنَ زيْد دارهُ موئلاً للمُستضعفينَ منَ المُسلمينَ الأوائل حيثُ يجدونَ فيه الأمْنَ والمأوى منَ الخوف والجُوع فقدْ نذر سَعيدُ وزوْجتُهُ نفسهما للّه ، والدّعوة الجديدة ، يبذُلونَ فى سَبيلها كُلَّ مَا

يملكان .

وفى تلكَ الدَّار كانَ يلْتقي المُسلمونَ الأوائل يتْلُونَ آيات الله ويَعبُدونَ ربَّهم .

وذَاتَ يومٍ كانَ الخَبَّابُ بنُ الأرَت في تلكَ الدَّار المُباركة يتْلوُ آيات القُرْآن عَلَى مَسامعِ سَعيد بن زَيْد وزَوجَتُه بصَوته العَذْب الجَميل .

وفجْأةً سَمعُوا طَرْقاً عَلىَ البَاب ، فقامَ سَعيدٌ ليَفْتحَ وَهوَ يَقُولُ :

ـ مَنْ الطَّارقُ ؟

وَجَاءَهُ صَوْتٌ مَهيبٌ منَ وراء البَاب : ابنُ الخَطَّاب !

وَفَزَعَ مَن بالدَّار لسَمَاعِ صَوْت عُمرَ بنَ الخَطَّاب ، وخَافُوا أنْ يَبْطش بهم لوْ علمَ بإسلامهم ، وكَانَ عُمَرُ وَقتها شَديدَ العداء للدّعَوة الجَديدة .

وأسْرَعَ سَعيدُ بن زَيدُ ليُخْفي الخَبَّابَ في مَكان بالبَيت ، وتَركَ الصَّحيفةَ التى كَانَ يتلُو منْهُا آياتِ القُرآن الكَريمَ في وسَطِ الدار من هَوْل المَوقف .

ثمّ عَادَ سَعيدُ ليَفتح البَابَ لابنَ الخَطَّاب .

دَخَلَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب مُتجَهماً غَاضباً ، يَنْطقُ وَجهُهُ بالشَّر وسألَهُم :

ـ مَاهَذه الهَنْهَةُ التى سَمعتُ ؟

فَقَالَ سعيدُ : لاَ شَيْءَ !

فَقَالَ عُمَرُ وَهُوَ يَتوغَّلُ دَاخِلَ الدَّارِ : لقَدْ أخْبِرتُ أنَّكُمَا صَبأتُما واتَّبَعْتُما دِينَ مُحمد ، أصَحيحٌ مَا سَمِعتُ ؟!

ولَمْ يَنْطِقْ أحَدٌ مِنْهُمَا بِكَلِمَةٍ ، فَصَاحَ وَهُوَ يَضرِبُ سَعيدُ فِي وَجْهِهِ :

ـ لِماذَا لا تُرُدَّانِ عَلَى سُؤالى ؟

وسَالَ الدَّمُ مِنْ وَجْهِ سَعيد ، فَقَامَتْ زَوْجُةُ سَعيد لِتَدفَعَ أخَاهَا عُمَرَ وتَمنعُهُ مِنْ زَوجِها ، فَلَطَمَهَا عُمُر بِكفِّهِ ، فَشَجَّهَا وَسَالَ الدَّمُ مِنْهَا أيْضاً :

فَغَضَبَتْ أمُّ جَمِيلِ أختُ عُمرِ ، وصَاحتْ فى تحدٍ شَدِيدٍ :

ـ نَعَمْ ، قَدْ أسْلمنَا واتَّبعنَا مُحمَداً ، فَاصنَعَ مَا بَدا لكَ .

فَلمّا رأى عُمَرُ الدِّمَاءَ تَسِيلُ مِنْ وَجهِ أختِه أخَذَتْهُ الشَفَقَةُ بِهَا ، وأطَرَقَ برأسِه فى الأرْضِ ، فَرأىَ صَحِيفَةً مُلقَاةً فَتَنَاولَهَا لِيقَرأهَا ، فمنَعتْهُ أختُهُ مِنْ تَنَاوُلِهَا ومَنَعَتهُ مِنْ قِراءتِها فتَعَجَّبَ عُمر وسألَهَا :

ـ مَاهَذَا الكِتَابُ ؟ . . أعْطِنيه !

فَقَالتْ : لا أعْطِيكَ شَيْئاً أنْتَ لسَتَ مِنْ أهْلِهِ ، هَذَا لا يَمسُّهُ إلا المُطهَّرُونَ .

وَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ بِهَا حَتىَ أعطَتهُ أختُهُ الصَحِيَّفةَ لِيَقْرأهَا ، بَعدَ أنْ

وَعَدَهَا بأنْ يُردَّهَا إليْهَا . فَقَرأ عُمَرُ فيْهَا : « بسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمَ » فتَعجَّبَ ، ثمّ عادَ يقرأ ﴿طه ① ما أنزلْنا عليْكَ القُرآن لتشْقىٰ ② إلاّ تذْكرةً لمن يخْشىٰ ③ تنزيلاً ممّنْ خلقَ الأرْض والسّموات العُلى ④ الرّحْمنُ على العرْش استوىٰ ⑤ له ما في السّموات وما في الأرْض وما بينهما وما تحْت الثّرىٰ﴾ [طه : ١-٦] .

وَتَأثّرَ عُمَرُ بكَلمَات القُرآن ، وأحسَّ رَوعةً وَجَلالاً ، فَقَالَ :

ـ مَا أحْسنَ هَذَا الكَلام وأكرَمهُ !

فاسْتَبشَرتْ أختُهُ عندَمَا رَأتهُ مُتأثراً مَذْهُولاً ، وتعَجَّبَ سَعيدُ زَوْجُهَا ، وَخَرجَ خَبَّابُ منَ مَخْبَئه وَهَو يُرَدِّدُ بفَرحَة : اللّهُ أكبَر ! ، واللّه إنّي لأرْجُو أنْ يكُونَ اللّهُ قَدْ خَصّكَ بدَعْوة نَبيّكَ ، فإنّي سَمعْتُهُ يَقُولُ : اللّهمَّ أيّد الإسْلامَ بأبي الحكَمِ بنَ هشَامِ ، أو بعُمَر بنَ الخَطّاب ، فاللّهَ اللّهَ يَا عُمَر !

فَقَالَ عُمَر : دُلني يَا خَبّابُ عَلى مُحمد حتى آتيه فَأسَلمَ .

فَقَالَ خَبَّابَ وهُوَ يَطيرُ منَ الفَرْحة : هُوَ في بَيْت عنَد الصّفَا في نَفَرٍ منَ أصْحَابه .

ورَدَّ عُمرُ الصَّحيفةَ إلى أخْته شَاكراً مُعتَذراً ، واعْتَذَرَ إلى زَوْجهَا المؤمنُ سَعيدُ بن زَيدِ ، ثُمَّ خَرجَ قَاصداً رَسُولَ اللّه ليُعلن بيْنَ يَديه

إسلامَهُ .

* * *

كَانَ سَعيدُ بنَ زَيد يَتحمَّلُ أذَى المُشركينَ فى مكَّةَ بصَبرٍ جَميلٍ ، ثمَّ هَاجرَ إلى المدينَة وبَقى فيهَا مَعَ مَنْ هَاجرَ منْ المُسلمينَ .

وكَانَ النَّبىُ صلَّى اللَّه عليه وسلم يُخطط لغَزوة بَدْر ، فَأرسَلَ سَعيدَ بنَ زَيْد فى مُهمَّة سرِّيَة مَع طَلحَةَ بن عُبيْد اللّه ، وَذَلكَ للإتْيَان بأخبَار قُريْش فى طَريق الشَّام ، وحَتى يَتخذَ النَّبىُ قَرارَ الحَرب بَعْدَ دراسَة المَوقف دراسةً مَوضُوعيةً وبَعْدَ أنْ يَكُونَ رُؤيةً وَاضحةً عَنْ أحْوال قُريش ، بحَيْثَ لا يُؤخَذُ جَيْشُ المُسلمينَ عَلَى غَفْلة ، فيَكونُ فى وَضعٍ خَطِر .

وَبَدأتْ غَزوةُ بَدْر ، والتَقى جَيْشُ المُسلمينَ بقيادة رسُول اللّه ، مَعَ جَيْش قُريش ، ودَارتْ مَعْركةٌ حَاسمةٌ ، كَانَ النَّصرُ فيهَا للمُسلمينَ .

وَعندَمَا عادَ طَلحةُ وسَعيدُ بنَ زيد منَ تلكَ المهُمَة كانَتْ المعَركةُ قَدْ انْتَهتْ وهُزمتْ قُريشُ هزيمةً قُتلَ فيهَا نَفرٌ منَ المُشْركينَ ، وأسرَ فيهم عَدَدٌ كبيرٌ ، وفَرَّ البَاقُونَ منْ أرْض القتَال .

وَحَزنَ سعيدُ بنُ زيد لأنَّهُ لَمْ يشْترك بنَفسه وبسَيفه فى غَزوة بَدْر ، وعنْدَ تَوْزيع الغَنائم جَعَلَ رَسولُ الله لسَعيد بنَ زيد وَطَلْحة سَهْمينَ مثْلَ منْ شَهدَ المعَركَة وقَاتَلَ ، والحَقُّ أنَّهمَا قَامَا بمُهمَة كبيرةٍ أفَادتْ

جَيشَ المُسلمينَ وَعَجَّلَتْ بالنَّصرَ ، وذلكَ بمَا كَانا يَبعَثَان أخبَاراً عَنْ قُرَيْش ويُشَارِكُ سَعيد بنَ زَيد في بَقيَّة الغَزَوَات مَعَ رَسُول الله ، وفي المَعَارك التي خَاضَهَا صَحَابةُ رَسُول الله منْ بَعدْه وعَاشَ حيَاتَهُ زَاهداً وَرِعاً .

* * *

ووَلِيَ الخلافَةَ أبُوبكر الصِّديق ، ثُمّ جَاءَ عُمرُ بنَ الخَطّاب وإذا بسَعيد يُقَاتِلُ في سَبيل اللّه مَعَ المُسلمينَ في الشّام ، وكَانَ أبُوعُبيدةَ قَائدَ جُيُوشِ المُسلمينَ هُنَاكَ ، ووَقَعَ اختيارُهُ عَلَى سَعيد بن زَيد لِيَتولّى مَنْصباً ، فَرفَضَ سَعيدُ أنْ يكونَ والياً لدمَشْقَ ، وآثَرَ الجهادَ في سَبيلِ اللّه لَعلَّهُ يَحْظَى بالشّهادَة في سَبيلِ اللّه .

وَيكْتبُ سَعيدُ إلى أبَي عُبيدة بنَ الجَراحَ طالباً إليه إعفَاءَهُ منْ تَوَلّي هَذَا المَنْصبَ الرّفيعِ ، ويَكْتُبُ إليهَ رسَالةً يَقُولُ فيْهَا :

ـ « سَلامٌ عليْكَ ، فإنّي أحْمَدُ اللّهَ الذي لا إلهَ إلا هُوَ ، أمّا بَعْد . .

فإني مَا كُنتُ لأوثِركَ وأصْحَابكَ الجهَادَ علَى نَفْسي وَعلَى مَا يُدْنيني من مَرضاة ربّيَ ، فَإذَا أتَاكَ كتَابَي هذَا فابْعَثْ إلىَ عَمَلكَ مَنْ هُوَ رَاغبٌ إليَه منّي فإنّي قَادمٌ عليْكَ وَشيكاً إنْ شَاءَ اللهُ تعالىَ ، والسَّلامُ عليكُم .

وآثرَ سَعيدُ بن زَيد أنْ يكونَ جُنْدياً في صُفوف الجَيش الإسلاميّ عَلىَ أنْ يتولىَ مَنْصباً قِيادياً يُرغبهُ في الدُّنيا ويَشغلهُ عَنْ مَرضَاة ربه ، وَظَلَّ زَاهداً في الدُّنْيا قَالياً لها ، ولمَ يَستغل مَنْصبَ أميرُ المؤمنينَ عُمَرَ بنَ الخَطّاب في تَحقيق مآربَ شَخصية لهُ ولأسْرَته ، بَلْ كَانَ يَزدادُ بطَاعته للّه قُرْباً منْ رَبّه وعُلُوّ منزلة ، لهذا كَانَ مُستجابَ الدَّعوة .

* * *

ذَاتَ يوم ادَّعتْ امرأةٌ تُدْعَى أروَى بنتُ أوَس أنّه ظَلمَها وَجَارَ عَلىَ أرْضها وشَكَتْهُ إلى مَروان بنَ الحكَم أميرُ المدينَة ، فتَعجَّبَ سَعيدُ منْ افْترائها عليه ، وَقَالَ للنَّاس :

ـ أتَروْنَني ظَلمتَها وَقَدْ سَمعتُ رَسُولَ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليه وسلمَ ـ يَقُولُ : « مَنْ ظَلمَ شبْراً منْ أرْض طَوَّقَهُ اللّهُ يومَ القيامَة منْ سَبْع أرَضينَ » .

ثُمّ اتَّجهَ إلى السَّمَاء وقَالَ : « اللّهُمَّ إنْ كَانَتْ كَاذبةً فَلا تُمتها حتَى تُعمى بَصرَهَا وتَجعلَ قَبْرهَا في بئرهَا » .

وكَانتْ المرأةُ ظَالمةً لهُ ، وتَمْضي الأيامُ ويَستجيبُ اللّهُ دَعوةَ عبْده المَظْلوم فَذَهبَ بصرُ المرأة ، وأصْبحتَ تَتَعثَرُ في سَيْرهَا ، ووَقَعتْ في بئْر دَارهَا ومَاتَتْ ، ولَمْ يَستطيعُوا إخْراجها ، فَكانَ هذاَ قَبْرَهَا .

وَعِنْدمَا بَلَغَ سعيدُ بنَ زَيدْ منَ الكبرِ عتيّاً ، وَجَاوزَ السَّبعينَ منْ عُمره آثَر البَقاءَ فى المَدينَة مُجاوراً لمَسجد رَسُول الله صلّى الله عليه وسلم لينَعمَ بالقُرب منْ حَبيبه رَسُولَ اللَّه ويستنْشقُ عَبَقَ الأيامِ الغَالية فى صُحبةِ النّبى ، وَيَتذكرُ يَوماً جَميلاً . .

ذَاتَ يَومٍ إلتَقَى سَعيدُ ببَعض أصْحَاب النَّبى فَقالَ لَهُمْ : أشْهدَ عَلى التَّسعة أنّهُم فِى الجَنّة ، ولوَ شَهدتُ على العَاشر لَمْ آثمَ .

فَقَالوا لَهُ : وكَيْفَ ذَلكَ ؟

قَالَ سعيدُ : كُنّا مَعَ رَسُول اللّه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يَوْماً بجَبلِ حراء ، فَقَالَ النّبىُ مُخاطباً الجَبلَ : أثبُتْ حراءُ ، فإنَّهُ ليْسَ عَليكَ إلا نبىٌّ أو صديقٌ أو شَهيدٌ .

فَقَالوا له : وَمَنْ هُمْ .

فَقَالَ سَعيدُ : رَسُولَ اللّه ، وَأبُو بَكر الصِّديقَ ، وَعُمَر ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلىّ ، وطَلحةَ ، والزُّبيْرُ ، وَسَعْدٌ ، وَعَبْدَ الرَّحمنِ بنَ عَوف .

فقَالوا لهُ : هَؤلاءِ تسعةٌ ، فَمَنِ العَاشرِ ؟

فقَالَ سَعيدُ : أنا !

وتحدرت دمعةٌ من عين سعيد بن زيد وهو يستعيدُ ذكرى هذا اليوم العزيز مع الصفوة الأبرار . وكانت تلك بشارةٌ من رسول الله لسعيد ابن زيد بدخول الجنة مع الأبرار جزاءَ إخلاصه لله ، وحبه لرسول الله وجهاده في سبيل الله .

ومات سعيدُ بن زيد في عام خمسين من الهجرة ليلحق بركب النبيين والصديقين ، والشهداء ، وحسنُ أولئك رفيقاً .

« رضي الله عن سعيد بن زيد »

رقم الايداع: ٢٠٠٥/٩١٩٠